

**توظيف قصص الأمثال التاريخية
في الشعر الجاهلي
عدي بن زيد العبادي نموذجاً**

الدكتورة

شمس الإسلام أحمد حالو

الجامعة القاسمية - كلية الآداب - قسم اللغة العربية

الإمارات العربية المتحدة

chalou@alqasimia.ac.ae

00971504219464

توظيف قصص الأمثال التاريخية في الشعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي

توظيف قصص الأمثال التاريخية في الشعر الجاهليّ

عديّ بن زيد العباديّ نموذجاً

المقدمة:

تعدّ الأمثال خلاصة ثقافات الشعوب وعصارة خبرتها في الحياة، وتفسيرها لظواهرها المختلفة، وسجلاً لأفكارها وعاداتها وتقاليدها؛ فهي تعكس أسلوب تفكيرها، وعلمها، وميولها، واعتقاداتها، وثقافتها، وكثيراً من سلوكها، وهي خلاصة العلاقات بين الناس وثمره تجارب الحكماء والمعمّرين، ولا يقتصر انتشارها على فئة معينة من الناس، فهي متعلّقة بالمجتمع كله، وتتسم بسرعة انتشارها وسيرورتها حتى قيل: "أسير من مثل" (١).

وقد عُرفت الأمثال عند العرب في العصر الجاهلي، وانتشرت انتشاراً واسعاً كحال الشعوب جميعها، وقد أكثر العربُ من صنعها وضربها في جميع أحداثهم وشؤون حياتهم، وكثيراً ما كانوا يستشهدون بها في خطاباتهم، يقول الجاحظ: "كان الرجل من العرب يقف الموقف، فيرسل عدة أمثال سائرة، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع" (٢) فكانت تعبيراً صادقاً عن حياتهم بصورها المختلفة، إلى جانب أنها حفظت جانباً مهماً من أدبهم ولغتهم وأسلوب تعبيرهم، يقول ابن عبد

(١) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ، ٣/٣.

(٢) البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، بتحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط/٧، ١٩٩٨م، ٢٧١/١، وينظر الفن ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط/١٠، ١٩٨٣م، ص٢٣.

توظيف قصص الأمثال التاريخية في الشعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي

ربّه: "هي وشي الكلام، وجوهر اللفظ، وحلّى المعاني، والتي تخيرتها العرب، وقدمتها العجم، ونطق بها كلّ زمان وعلى كلّ لسان. فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء مسيرها، ولا عمّ عمومها"^(٣).

وقد تنوعت الأمثال عند العرب في العصر الجاهلي، ولم تكن على صورة واحدة، وأسلوب واحد، فمنها الأمثال الحكمية، ومنها الأمثال التصويرية، ومنها الأمثال الشعرية، ومنها الأمثال القصصية التي تنوعت قصصها ما بين قصة خرافية أو تاريخية أو واقعية، أو اجتماعية، وكانت قصص الأمثال هذه متنفساً للعربي في حياته القاسية في صحراء قاحلة شحيحة الموارد، فرضت صراعات دائمة انعدم معها الشعور بالأمن والطمأنينة، وسيطر عليها التوتر والقلق الدائم، فكان لا بدّ مما ينير عمّة ليل العرب البهيم، ويروّح عن نفوسهم، ويخفف ضغط هذه الحياة وهواجس حياتهم اليومية المرهقة، فكانت الأمثال وقصصها حاجة فردية للنفس التي تبحث عن الراحة والأمان في هذه الحياة المضطربة القلقة، وكذلك ضرورة اجتماعية في بيئة بدوية قاسية ندرت فيها وسائل المتعة والتسلية، واشتدّ فيها الخوف والخطر، فأضفت هذه الأمثال والقصص على حياتهم روحاً وحياةً، وغدت فسحةً يعوّضون فيها شيئاً من جذب الصحراء وقفرها، ويبدّدون بعضاً من مخاوفها.

ولأهمية الشعر عند العرب، وسرعة انتشاره بين الناس بفضل ما تميّز به من إيقاع الوزن والقافية، وكونه مرآة تعكس حياة الشاعر والحياة

(٣) العقد الفريد، شهاب الدين أحمد بن عبد ربّه الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٤٠٤، ٣/٣.

العربية بصورها المختلفة، فقد حملّه الشاعر الجاهلي أفكاره ومعتقداته وآماله وتطلعاته، وكان في جملة ما احتواه الأمثال القصصية التي كثيراً ما يجد فيها الشاعر معادلاً موضوعياً للموضوعات التي يتحدث عنها.

ونجد المثل القصصي في الشعر الجاهلي في صورتين، الصورة الأولى التي يأتي الشاعر فيها بالمثل فقط موجزاً دون تفصيل، والذي يمكن أن نسميه عنوان القصة أو مغزى القصة، والثانية التي يأتي الشاعر فيها بالقصة كاملة أو بجزء من أحداثها موظفاً ذلك لخدمة غرضه الشعري، والجزء الثاني هو موضوع هذا البحث الذي سيفصل القول في توظيف قصص الأمثال التاريخية خاصة في الشعر الجاهلي، مستشهداً بداية بالشعر الجاهلي بشكل عام، ومن ثم سيخصص الحديث لتوظيف قصص الأمثال التاريخية عند الشاعر عدي بن زيد العبادي، ويحلل قصيدة له تبرز أسلوبه وطريقته في ذلك، ثم ينتهي البحث بمجموعة من النتائج التي توصل إليها، ومن أهمها كثرة توظيف شعراء العصر الجاهلي لقصص الأمثال التاريخية في شعرهم لأغراض مختلفة، ومنهم عدي بن زيد العبادي الذي استطاع ببراعة توظيف قصة جذيمة الأبرش والزبّاء التاريخية وبعض الأمثال التي تتعلق بها في غرضه الشعري، وتميّز بربطه المحكم بين أحداث القصة والأمثال التي فسرتها والقصيدة الشعرية التي نظمها، فقدّمت القصيدة نموذجاً لارتباط فنون ثلاثة مهمة (الشعر والقصة والمثل) وفسّرت عدداً من الأمثال المعروفة والمشهورة عند العرب، والمروية في كتب الأمثال وغيرها.

وعلى الرغم من الدراسات التي دارت حول الأمثال إلا أنها مازالت تنتظر أبحاثاً جديدة في هذا الباب، تضيء من خلالها جوانب لم

توظيف قصص الأمثال التاريخية في الشعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي

تتل حظها الوافر من الدراسة بعد، وتظهر مكامن الإبداع والجمال فيها، وتستنبط القواعد والأصول التي قام عليها هذا الفن.

وللإحاطة بالبحث ودراسته دراسة وافية اعتمد الباحث على المنهج الوصفي التحليلي إلى جانب المنهج الاستقصائي والمنهج المقارن، ورسم الباحث خطة انطلق فيها من العام إلى الخاص، فكان لا بد بداية من تعريف المثل وتوضيح أهميته وأنواعه، ثم التعريف بقصص الأمثال وأنواعها في الشعر الجاهلي، ثم الوقوف عند قصص الأمثال التاريخية ونشأتها ومصدرها، وأساليب توظيف الشعراء الجاهليين لها في شعرهم. ثم كان الحديث في قصص الأمثال التاريخية في شعر عدي بن زيد العبادي، بعد التعريف بالشاعر، من خلال تحليل قصة من قصص الأمثال التاريخية الشعرية عنده، قصة جذيمة الأبرش ملك الحيرة والزبأ ملكة تدمر، وبيان أهم سماتها وخصائصها، وكيفية توظيف الشاعر لها في غرضه الشعري.

أولاً- تعريف المثل، وأهميته، وأنواعه:

أ- المثل في اللغة والاصطلاح:

جاءت مادة (مثل) في المعاجم العربية بمعانٍ عدّة من أبرزها المماثلة والتسوية والنظير والمقدار؛ فقد قال الجوهري: "مِثْلٌ: كلمة تسوية. يقال: هذا مِثْلُهُ ومِثْلُهُ كما يقال شِبْهُهُ وشَبَّهُهُ بمعنى ... والمِثْلُ: ما يُضْرَبُ به من الأمثال. ومثل الشيء أيضاً: صفته." (٤) وقال ابن فارس: " المِثْمُ والنَّاءُ

(٤) الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، ط٤، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م. مادة (مثل).

وَاللَّامُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَنَاظِرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ. وَهَذَا مِثْلُ هَذَا، أَي نَظِيرُهُ، وَالْمِثْلُ وَالْمِثَالُ فِي مَعْنَى وَاحِدٍ. وَرَبَّمَا قَالُوا مِثْلُ كَشَبِيهِ... وَالْمِثْلُ: الْمِثْلُ أَيْضًا، كَشَبِيهِ وَشَبِيهِ. وَالْمِثْلُ الْمَضْرُوبُ مَأْخُذٌ مِنْ هَذَا، لِأَنَّهُ يُذَكِّرُ مُورَى بِهِ عَنِ مِثْلِهِ فِي الْمَعْنَى. (٥)

وجاء عند ابن منظور: "مثل: كلمة تسوية. يُقال: هذا مثله ومثله كما يُقال شبيهه وشبهه بمعنى؛ قال ابن بري: الفرق بين المماثلة والمساواة أن المساواة تكون بين المختلفين في الجنس والمتفقين؛ لأنَّ التساوي هو التكافؤ في المقدار لا يزيد ولا ينقص، وأما المماثلة فلا تكون إلا في المتفقين... المثل: الشيء الذي يُضرب لشيءٍ مِثْلًا فيجعل مثله." (٦) فالملاحظ أن أهم معانيها في المعاجم اللغوية المشابهة والمماثلة والتسوية والمناظرة.

ونظرًا لأهمية الأمثال العربية فقد حظيت باهتمام العلماء والبلغاء وأرباب الفصاحة والبيان وأدلوها بدلوهم بها في غير المعاجم أيضًا، فوقفوا عند المعنى الاصطلاحي للمثل، وأبرزوا خصائصه وميزاته وأهميته، فقد ذكر أبو هلال العسكري أن "أصل المثل التماثل بين الشئيين في الكلام كقولهم: "كما تدين تدان" وهو من قولك هذا مثل الشيء ومثله كما تقول شبهه وشبهه ثم جعل كل حكمة سائرة مثل." (٧)

(٥) مقاييس اللغة، أحمد بن زكريا ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٩م، ٢٩٦/٥.

(٦) لسان العرب، محمد بن مكرم ابن منظور، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ، مادة (مثل).

(٧) جمهرة الأمثال، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، دار الفكر، بيروت، ٧/١.

توظيف قصص الأمثال التاريخية في الشعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي

وقال المبرد: " المثل مأخوذ من المثل، وهو: قول سائر يُشَبَّه به حال الثاني بالأول، والأصل فيه التشبيه." (٨) وذكر ابن سلام أن الأمثال: " هي حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حولت من حاجتها في المنطق، بكناية غير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاثة خلال، إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه." (٩)

فابن سلام ذكر ثلاث صفات للمثل، في حين نجد إبراهيم النظم يجعلها أربعاً، يقول:

"يجتمع في المثل أربع لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة." (١٠) فقد أضاف جودة الكناية.

وأما المرزوقي فيعرف المثل بأنه: " جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلها بذاتها، تتسم بالقبول وتشتهر بالتداول، فتنتقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها، وعمّا يوجبها الظاهر إلى أشباهه من المعاني. ولذلك تضرب وإن جهلت أسبابها

(٨) مجمع الأمثال، أحمد بن محمد الميداني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت - لبنان، د.ت، ١/١. وينظر المقتضب، لأبي العباس محمد بن يزيد الثمالي المبرد الأزدي، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٤م، ٢٢٥/٣.

(٩) الأمثال، أبو عبيد القاسم بن سلام، ط١، تحقيق الدكتور عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث، ١٩٨٠م، ص ٣٤.

(١٠) نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب النويري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٣هـ، ٢/٣. وينظر: مجمع الأمثال للميداني، ١/١.

التي خرجت عليها^(١١) وهذا التعريف للمرزوقي يجمع الحكمة والمثل. فالمقتضبة من أصلها هي المثل الذي له أصل وقصة أو حادثة معينة، والمرسلة بذاتها هي الحكمة التي ينطق بها الحكيم بعد طول التجربة والخبرة.

ب_ أهمية المثل:

لم يقصّر العلماء والدارسون قديماً وحديثاً في توضيح القيمة الأدبية واللغوية والاجتماعية والتاريخية للمثل باعتباره فناً من الفنون الشعبية المعروفة والشائعة عند العرب من العصر الجاهلي وإلى يوم الناس هذا؛ ففي أهميته وبيان قيمته الأدبية واللغوية يقول الميداني: "فإنّ من المعلوم أنّ الأدب سلّم إلى معرفة العلوم، به يُتوصّل إلى الوقوف عليها، ومنه يتوقّع الوصول إليها، غير أنّ له مسالك ومدارج، ولتحصيله مراقبي ومعارض، من رقيّ فيها درجاً بعد درج، ولم تهمّ شمسُ تشميره بعَرَج، ظفرتُ يده بمفاتيح أغلاقه، وملكت كفاه نفائس أغلاقه، ومن أخطأ مرّقاةً من مراقيه، بقي في كدّ الكدح غير ملاقيه، وإنّ أعلى تلك المراقبي وأقصاها، وأوعر هاتيك المسالك وأعصاها، هذه الأمثال التي هي لمآطات حَرْشَةِ الضبّاب، ونفائات حَلْبَةِ اللّقاح وحملة العلاب، من كل مرتضع درّ الفصاحة يافعاً ووليداً، مرتكض في حجر الذّلاقة توأمأً ووحيداً."^(١٢) وفي

(١١) ينظر زهر الأكم في الأمثال والحكم، الحسن بن مسعود اليوسي، ط١، د محمد حجي، د محمد الأخضر، الشركة الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء - المغرب، ١٩٨١م، ٢١/١.

(١٢) مجمع الأمثال، للميداني، ١/١. الحَرْشُ أَنْ تُهَيِّجَ الضبُّ فِي جُحْرِهِ، فَإِذَا خَرَجَ قَرِيباً مِنْكَ هَدَمْتَ عَلَيْهِ بَقِيَةَ الْجُحْرِ، وَأَرَادَ بِالصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ الْأَعْرَابَ الْفَصْحَاءَ.

توظيف قصص الأمثال التاريخية في الشعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي

كلامه دلالة واضحة على قيمة المثل ورفيه ونفاسته ووعورة مسلكه وفصاحة لغته، فهو كما يقول ثمرة أهل الفصاحة والبلاغة من العرب الأقحاح.

ويقول الأبشيهي أيضاً في قيمتها "اعلم أن الأمثال من أشرف ما وصل به اللبيب خطابه، وحلى بجواهره كتابه. وقد نطق كتاب الله تعالى، وهو أشرف الكتب المنزلة بكثير منها، ولم يخل كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها، وهو أفصح العرب لساناً، وأكملهم بياناً، فكم في إيراد وإصداره من مثل يعجز عن مباراته في البلاغة كل بطل." (١٣)

ويوضح الزمخشري أهمية المثل وأثره في الكشف عن المعاني والحقائق، يقول: "لضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر - شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد. وفيه تكييت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامح الأبي، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكلام الأنبياء والحكماء." (١٤)

فالمثل إذن مهم من نواح عدة؛ فهو مصدر من مصادر اللغة العربية، ووجه من وجوها، ينطق به عامة الناس وكذلك البلغاء والفصحاء، وقبل

(١٣) المستطرف في كل فن مستظرف، محمد بن أحمد الأبشيهي، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار القلم، بيروت، ١٩٨١. ص ٤٥.

(١٤) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمرو الزمخشري، ط ٣، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٤٠٧ هـ، ٧٢/١.

كلّ شيء موجود في كلام الله سبحانه وتعالى، وكلام نبيّه -صلى الله عليه وسلم- وهو فنّ يتميّز بالإيجاز، والبلاغة، وحسن الصياغة، وصدق التعبير، وجمال التصوير، ما جعله أحد أهمّ الفنون العربيّة اللغويّة والأدبيّة عبر العصور التاريخيّة المختلفة.

وكما وقف كثير من القدماء عند المثل فقد نال حظه من العناية والاهتمام عند المحدثين أيضاً، فوضحوا قيمته وأهميته في دراسة المجتمع واللغة والفكر البشري وعادات الشعوب وتقاليدها؛ فالدكتور رمضان عبد التواب يؤكّد أنّ الأمثال معين لا ينضب لمن يريد دراسة المجتمع أو اللغة، أو العادات الشعبيّة عند أمة من الأمم.^(١٥) ويؤكد محمد المرزوقي أنّ الأمثال من أهم أنواع الأدب الشعبي، وأصلقها بال جماهير، وأقربها إلى مفاهيم الناس.^(١٦)

ويوضّح أحمد أمين إجادة العرب لهذا النوع من الأدب: "والعرب حقّاً أجادوا في هذا النوع من الأدب، وخلفوا لنا ما يدلّ على عقليتهم أكثر مما يدلنا الشعر والقصص، ويظهر أن سبب ذلك أنه يوافق مزاجهم العقلي، وهو النظر الجزئي الموضوعي لا الكلي الشامل؛ لأنّ المثل لا يستدعي

(١٥) ينظر كتاب الأمثال، لأبي فيد مؤرّج السدوسي، حققه د. رمضان عبد التواب، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١، ص ٥.

(١٦) الأدب الشعبي في تونس، محمد المرزوقي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٦٧م، ص ٣٣.

توظيف قصص الأمثال التاريخية في الشعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي

إحاطة بالعالم وشؤونه، ولا يتطلب خيالاً واسعاً، ولا بحثاً عميقاً، إنما يتطلب تجربة محلية في شأن من شؤون الحياة^(١٧)

والدكتور شوقي ضيف وضّح أهميتها في نقل صورة صادقة عن النثر في العصر الجاهلي؛ إذ إن من شأنها ألا تتغير، وأن تظل طويلاً بصورتها الأصلية، بحكم إيجازها وكثرة دورانها على الألسنة.^(١٨)

ج. أنواع الأمثال:

تنوّع تقسيم الأمثال عند الدارسين لها في اتجاهات عدّة حسب الجانب الذي يناسب تناولهم لها، فمن ذلك تقسيمها بناءً على الممكن و اللاممكن أو المعقول واللامعقول، كما عند السيد أحمد الهاشمي الذي قسّمها إلى ثلاثة أقسام، مفترضة ممكنة، ومخترعة مستحيلة، ومختلطة؛ فالأمثال المفترضة الممكنة هي ما نسب فيها النطق والعمل إلى عاقل، والمخترعة المستحيلة ما جاءت على ألسنة الحيوانات والجمادات، والمختلطة ما دار فيها الكلام أو العمل بين الناطق وغير الناطق.^(١٩)

ومن ذلك أيضاً تقسيم ناتج عن الاستقصاء كما عند الدكتور محمد رجب النجار الذي استقصى عشرة أنواع مثليّة في التراث العربي القديم، هي المثل القياسي، والتعبير المثلي، والمثل الساخر، والمثل القصصي

(١٧) فجر الإسلام، أحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، القاهرة، ٢٠١٢م. ص ٧٢.

(١٨) تاريخ الأدب في العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط/٢٨، ٢٠٠٨م، ص ٤٠٤.

(١٩) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، أحمد الهاشمي، ط ٢٧، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٩٦٩م، ٢٨٧/١-٢٨٨.

الخرافي، والمثل القرآني، والنبوي، والشعري، واللغزي، والمثل المولّد أو العامي، والمثل الكتابي. (٢٠)

يقسم الأمثال العربية تقسيماً تاريخياً زمنياً، يقول زلهائم رودلف في حين نرى "تتقسم الأمثال العربية بحسب أعمارها إلى ثلاثة أقسام: ١- الأمثال القديمة، ٢- الأمثال الجديدة، أو الأمثال المولدة، وهي التي جمعت وأضيفت إلى الأمثال القديمة في مجموعات الأمثال منذ القرن الرابع الهجري، وهذه الأمثال التي زاحمت الأمثال القديمة كثيراً فيما بعد، جمعها الميداني في كتابه: "مجمع الأمثال" وأفردها في نهاية كل فصل من فصول كتابه. ٣- الأمثال الحديثة، وهي التي جمعها الأوربيون، قبل غيرهم، في القرن التاسع عشر، والقرن العشرين من سوريا، وفلسطين، ومصر، وغيرها من الدول العربية، ونشروها." (٢١)

أمّا الدكتور محمد توفيق أبو علي فيقسمها وفق تصنيفات عدة؛ منها تقسيم زمني استفاد فيه من زلهائم، وكرّر تقسيماته نفسها، وآخر حسب علة نشوئها، وهي الأمثال الناجمة عن حادث مثل: "وافق شن طبقة"، (٢٢) والأمثال الناجمة عن تشبيهه بشخص أو حدث معين واتخاذها مثلاً يحتذى،

(٢٠) من فنون الأدب الشعبي في التراث العربي، محمد رجب النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، وزارة الثقافة، ٢٠٠٣ م، ص ٨٣.

(٢١) الأمثال العربية القديمة، رودلف زلهائم، ط١، ترجمة وتحقيق وتعليق د. رمضان عبد التواب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧١م، ص ٤٣.

(٢٢) مجمع الأمثال، ٣٥٩/٢.

توظيف قصص الأمثال التاريخية في الشعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي

مثل "أجود من حاتم"،^(٢٣) والأمثال الناشئة عن حكمة، كقول زهير بن أبي سلمى:^(٢٤)

رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِيبُ تَمَّتْهُ وَمَنْ تَخْطِئُ يُعَمَّرُ فِيهِمْ

والأمثال الناشئة عن قصة متداولة ومروية على ألسنة الناس كمثل "لمسة نبي" الذي يلخص قصة إحياء السيد المسيح عليه السلام للموتى. والأمثال الناشئة عن شعر، مثل: "هذا أوان الشّدِّ فاشتدّي زيم..."^(٢٥) والأمثال الناشئة عن القرآن الكريم والحديث الشريف، والشائع أنها كل ما جرى على ألسنة الناس منها فهو مثل.^(٢٦)

ثم يبيّن تداخل نشأة بعض أنواع الأمثال مع بعضها كالمثل الناشئ عن حكمة والمثل الناشئ عن الشعر، كما يلاحظ تداخل المثل الناشئ عن حادث والناشئ عن قصة، فالحوادث جزء من القصة، والقصص تقوم على الحدث.^(٢٧)

ومن خلال ما سبق يتضح أن محاولة تقسيم الأمثال وتصنيفها لا تعني أن أنواعها كلها واضحة الحدود والمعالم، وأن كل نوع مستقل بنفسه،

(٢٣) المصدر السابق، ١/١٨٢.

(٢٤) شعر زهير بن أبي سلمى، شرح الأعم الشنتمري، ط٣، تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٢٥.

(٢٥) جمهرة الأمثال، ١/١٢٨، ومجمع الأمثال، ٢/٣٩١.

(٢٦) الأمثال العربية والعصر الجاهلي، د. محمد توفيق أبو علي، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٤٠٨-١٩٨٨م، ص ٤٣-٤٥.

(٢٧) الأمثال العربية والعصر الجاهلي، ص ٤٤

فكثيراً ما تتداخل أنواع المثل ويصعب التفريق بينها، كما بين المثل الخرافي والمثل القصصي، وبين المثل الشعري والمثل الناشئ عن حكمة.

وقد حاول بعض الباحثين التمييز بين المثل وغيره من التعبيرات التي تتداخل معه، ومنهم زلهائم الذي حاول أن يوضح الفرق بين المثل والتعبير المثلي والحكمة والعبارة التقليدية،^(٢٨) ورغم محاولته التمييز بينها ووضع حدود واضحة لكل منها إلا أنها لا تعدم التداخل مع بعضها، وقد جاءت في معظم كتب الأمثال دون تمييز بينها وكذلك في أوساط الناس والمجتمع.

ثانياً_ أنواع الأمثال القصصية وتوظيفها في الشعر الجاهلي:

لقد عرف الشاعر الجاهلي قيمة قصص الأمثال العربية وأهميتها في تشكيل الذوق الأدبي لدى المبدع والقارئ، وأدرك قيمتها الاجتماعية والتاريخية واللغوية؛ لذلك كثيراً ما نراه يضمن أشعاره هذه القصص، فيجمع في ذلك بين فنون ثلاثة لها صدى وأثر كبير في نفوس المنذوقين الشعر والمثل والقصة، فيضيف ميزات أخرى إلى شعره تعمل على ذبوعه وانتشاره بين الناس.

فلا عجب أن نرى الأمثال تمتطي سهوة الشعر، وليس غريباً أن يحفل الشعر الجاهلي بكثير من الأمثال القصصية التي تدخل في بناء القصيدة وتشكل جزءاً مهماً من نسيجها وبنائها الموضوعي والفني، فالتداخل بين الشعر والأمثال بشكل عام أمر

(٢٨) الأمثال العربية القديمة، زلهائم، ص ٢٧ وما بعدها.

توظيف قصص الأمثال التاريخية في الشعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي

مألوف شائع، حتى لا يمكننا حصر الأمثلة التي يتداخل فيها الفنان مع بعضهما.

وقد تنوعت موضوعات قصص الأمثال في الشعر الجاهلي، فمنها الأمثال التي تعود إلى قصص واقعية كقصة امرئ القيس والسموعل التي ذكرها الأعشى في شعره،^(٢٩) وهي تفسر قصة المثل القائل: "أوفى من سموعل"،^(٣٠) وهو مثل يضرب لمن يفي بعهده ويتمسك به، وقصة المثل تتحدث عن وفاء سموعل الذي وفي لصاحبه امرئ القيس، فرفض تسليم دروعه لأعدائه فكانت حياة ابنه ثمناً لهذا الوفاء. ووظف الأعشى هذه القصة المثلية في مدحه لشريح بن حصن ابن عمران بن سموعل بن عاديا، فالسموعل من أجداد الممدوح، يذكره بأصله الكريم المؤثّل، ومنها قوله:^(٣١)

كَنْ كَالسَّمُوْعِلِ إِذْ سَارَ الْهَمَامُ لَهُ فِي جَحْفَلِ كِسْوَادِ اللَّيْلِ جَرَّارِ
بِالْأَبْلَقِ الْفَرْدِ مِنْ تِيْمَاءَ مَنْزِلُهُ حِصْنُ حَصِينٍ وَجَارٌ غَيْرُ غَدَّارِ

وقوله:^(٣٢)

وَقَالَ لَا أَشْتَرِي عَارًا بِمَكْرَمَةٍ فَاخْتَارَ مَكْرَمَةَ الدُّنْيَا عَلَى الْعَارِ
وَالصَّبْرُ مِنْهُ قَدِيمًا شِيمَةٌ خُلِقَ وَزَنْدُهُ فِي الْوَفَاءِ النَّاقِبُ الْوَارِي

(٢٩) ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق د. محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، ١٩٥٠م، ص ١٧٩.

(٣٠) مجمع الأمثال، ٣٧٤/٢.

(٣١) ديوان الأعشى، ص ١٧٩.

(٣٣) المصدر السابق، ص ١٨١.

ومن قصص الأمثال ما يعود إلى قصص خرافية كقصة الحية ذات الصفا التي ذكرها النابغة الذبياني في شعره،^(٣٣) وهي تفسر قصة المثل القائل: " كيف أعاودك وهذا أثرُ فأسك،"^(٣٤) يضرب لمن لا يفى بالعهد، وملخص القصة غدرُ راعٍ بحيةٍ كانت قد قتلت أخاه وانفقت معه على أن تعطيه ديناراً كلَّ يومٍ مقابل التنازل عن ثأر أخيه، وهذا ما كان زماناً طويلاً، ولمّا أصبح غنياً، تذكّر أخاه، وغدر بالحية فضربها ليقتلها، فأخطأها ولم تمت وبقي أثرُ فأسه في جسمها، فحاول أن يصلح الأمر معها كي تعود إلى عاداتها في دفع النقود له، لكنّها أبت، وقالت له المثل المذكور، ومن أبيات النابغة في هذه القصيدة التي تبين توظيفه لها في غدر قبيلة ذبيان به:^(٣٥)

ألا أبلغا ذبيانَ عني رسالةً	فقد أصبحتُ عن منهج الحقِّ جائرةً
كما لقيتُ ذات الصفا من حلفها	وكانت تُريه المالَ غيباً وظاهرةً
فلمّا رأى أن ثمر الله ماله	وأثّل موجوداً وسدّ مفارقةً
أكبَّ على فأسٍ يُحدُّ غرابها	مذكّرةً من المعاولِ بآثره
فقام لها من فوق جحرٍ مُشيدٍ	ليقتلها أو يُخطئ الكفَّ بآدره
فلمّا وقأها الله ضرباً فأسه	وللشرِّ عينٌ لا تغمضُ ناظرةً
فقال: تعالي نجعل الله بيننا	على مالنا أو تُنجزي لي آخره

(٣٣) ديوان النابغة الذبياني، صنعة ابن السكيت، بتحقيق د. شكري فيصل، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٨م، ص ٢٠٧.
 (٣٤) مجمع الأمثال، ١٤٥/٢.
 (٣٥) ينظر ديوان النابغة الذبياني، ص ٢٠٧ - ٢١٠.

فَقَالَتْ: يَمِينُ اللَّهِ أَفْعَلُ؛ إِنِّي رَأَيْتُكَ مَشْؤَمًا يَمِينُكَ فَاجْرَهُ

أَبَى لِي قَبْرٌ لَا يَزَالُ مُقَابِلِي وَضَرْبَةً فَأَسِ فَوْقَ رَأْسِي فَاقِرَهُ

ومنها ما يحتوي قصصاً تاريخية خالط بعضها الأسطورة والخرافة مثل قصة لقمان الحكيم التي ذكرها شعراء جاهليون كثير، ومن أهم الأمثال التي تفسرها القصة: " طَالَ الْأَبْدُ عَلَى لُبْدٍ"^(٣٦)

وقصة جذيمة الأبرش وعمرو اللخمي وقصير والزباء. وهي تفسر أمثالاً كثيرة سوف نتحدث عن بعضها في تحليل قصيدة عدي بن زيد العبادي.

وأما من حيث أسلوب توظيف الشعراء لها؛ فإن استقراء الشعر الجاهلي يوضح أن هناك أشكالاً وأساليب متنوعة لقصص الأمثال في الشعر الجاهلي، الأول يكون بذكر المثل دون ذكر قصته كاملة بهدف التمثل به وتوظيفه في موقف مشابه، ويبدو أن الشاعر يعزف عن ذكر قصته لأن المثل بهذه الطريقة يلبي هدفه وما يرمي إليه في شعره، كقول النابغة الذبياني:^(٣٧)

أَضَحْتُ قِفَارًا وَأَضْحَى أَهْلُهَا احْتَمَلُوا أَخْنَى عَلَيْهَا الَّذِي أَخْنَى عَلَى لُبْدٍ

فالمثل جاء في عجز البيت فقط، والشاعر يشير إلى المثل القائل "أتى أْبْدُ عَلَى لُبْدٍ"^(٣٨) ولُبْدُ هو النسر السَّابِعُ من نسور لقمان بن عاد؛ وكان يأخذ

(٣٦) ينظر مجمع الأمثال، ٤٢٩/١. والأُمالي لأبي علي القالي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م، ١٩٠/٢. وشرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، حققه وقدم له د. إحسان عباس، سلسلة التراث العربي، الكويت، ١٩٦٢م، ص ٢٧٤.

(٣٧) ديوان النابغة الذبياني، مرجع سابق، ص ٥.

(٣٨) جمهرة الأمثال للعسكري، ١٢٦/١. وأمثال ابن سَلَام، ٣٣٦/١.

النسر صغيراً فيريه حتى يكبر فإذا مات أخذ نسرًا آخر حتى استكمل عمر سبعة أنسر وكان لبد سابعها وآخرها، ومع نهايته حياته ستنتهي حياة لقمان، وكان قد خيّر بين عمر سبعة أظب عفر في بلد وعر، وبين عمر سبعة أنسر كلما مرّ نسر عاد عمره إلى نسر، فاختر عمر الأنسر في حديث طويل، ويقال إن النسر يعيش أربعمئة سنة.^(٣٩)

ومن أمثلة هذا النوع أيضاً قول زهير بن أبي سلمى، وجاء المثل عنده في عجز البيت أيضاً:^(٤٠)

فَتَنْتَجِ لَكُمْ غِلْمَانٌ أَشَامٌ كُلُّهُمْ كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَنْفَطِمُ

والمثل هو: "أشام من أحمر عاد"^(٤١) وهو الذي عقر ناقة صالح فهلكت بفعله ثمود.

ونوع آخر يأتي فيه الشاعر بالقصة بإيجاز في عدة أبيات بهدف اتخاذ العبرة والعظة منها كما نجد عند سلمى بن غوية في ذكره لقصة لقمان مخاطباً زوجته التي هزئت منه لرؤيتها .

(٣٩) المصادر السابقة نفسها، وفصل المقال في شرح كتاب الأمثال، أبو عبيد عبد الله بن محمد البكري، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/١، ١٩٧١م، ٤٦٢/١.

(٤٠) شعر زهير بن أبي سلمى، صنعة الأعلام الشنتمري، تحقيق د. فخر الدين قباوة، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط/٣، ١٩٨٠م، ص ١٩.

(٤١) جمهرة الأمثال، ٥٥٨/١. والأمثال، زيد بن رفاعة الهاشمي، تحقيق: د. علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين، دمشق، ٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، ص ١٩.

علامات الكبر والشيخوخة عليه: (٤٢)

أولم تري لقمانَ أهلكهُ ما اقتاتَ من سنّةٍ ومن شهرٍ
وبقاءَ نسرٍ كلما انقضتْ أيامهُ عادتْ إلى نسرٍ
ما طالَ من أمدٍ على لُبِّدٍ رجعتْ محورتهُ إلى قصرٍ

وقد يطول الاستشهاد لتوظيف المثل وقصته أكثر من ذلك كما نجد في ذكر الأعشى لـ "حصن تيماء" التاريخي الذي يسمى بـ "الأبلق" يقع بين الحجاز والشام يتمثل به في الحصانة، ويقال إن سليمان بناه بالحجارة والكلس فمنعته العرب. ثم ملكه عادياء اليهودي ثم ابنه السموع، وفيه قالت العرب المثل "تمرّد مارد وعزّ الأبلق". (٤٣)

ولا عادياء لم يَمنع الموتَ مالهُ وحصنٌ بتيماءَ اليهوديِّ أبلقُ
بناه سليمانُ بنُ داوودَ حقبهُ له أزجُ عالٍ وطيءٌ موثقُ
يُوَازي كُبَيْداءَ السَّماءِ ودونهُ بلاطٌ وداراتٌ وكِلسٌ وخندقُ
لهُ درمكٌ في رأسهِ ومشاربٌ ومسكٌ وريحانٌ وراحٌ تصفّقُ
وحورٌ كأمثالِ الدمى ومناصفٌ وقدّر وطبّاخٌ وصاعٌ وديسقُ

(٤٢) الأمالي لأبي علي القالي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥م، ١٩٠/٢، ونسبت الأبيات لشعراء آخرين.

(٤٣) الأمثال، للهاشمي، مرجع سابق، ص ٢٥٥، وثمار القلوب في المضاف والمنسوب، للثعالبي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ٥٢٠. والأبيات في ديوان الأعشى، ص ٢١٧.

فذاك ولم يُعجز من الموت ربّه ولكن أتاه الموت لا يتأبّق^(٤٤)

فالأبيات التي ذكرها الأعشى يضرب فيها مثلاً لاستحالة الخلود بعد أبيات ذكر فيها تقدّمه في العمر ومعاناته مع الشيخوخة والشيب والهّمّ وضعف النظر، معزياً نفسه بزوال الشخصيات المهمة قبله من مثل كسرى وسليمان، حتى الأبنية القوية التي يفترض أن تكون أكثر قوة من الإنسان، وقادرة على مواجهة الدهر، لم تصمد أمام غوائله، وأمام الموت المقدّر على الجميع، ومنها حصن (الأبلق) الذي تحدّث عنه، ووصفه وصفاً دقيقاً، ليبين قوته وعظّمته وجودة بنائه، والحياة التي كانت عامرة به، والشخصيات المهمة التي تناوبت عليه، ليذهب كل ذلك إلى البلاء والعفاء والزوال. فالشاعر ذكر الجانب الذي يهّمه من القصة والمثل المتعلق بها، بما يخدم الغرض الذي أراده، ويعبر عن المعنى الذي يسعى لتأكيدّه.

ثالثاً_ نشوء الأمثال القصصية التاريخية ومصدرها:

كان العصر الجاهلي عصراً حافلاً بالأحداث الخارجية والداخلية، التي كان لها أثر كبير في نشوء القصص وانتشارها بين الناس، واستخراج الحكم منها، ونسج الأمثال عليها، إذ يقيس الناس بها المواقف المشابهة في حياتهم وتجاربهم. ومما أذكى الروح القصصي عند العرب آنذاك أيضاً أن العرب متاخمة لإمبراطوريتي الفرس والروم اللتين تدور بينهما

(٤٤) الأزج: ضرب من الأبنية يبني طولاً، وأزج البناء: علاه. وطوى البئر طياً: عرشها بالحجارة والآجر. الدارة: ما أحاط بالشيء. والكلس: الحجارة. الدرّمك: التراب الناعم، ودرّمك البناء ملسه. وصفق الخمر: روّقها بصبها من إناء إلى إناء. مناصف: جمع منصف، وهو الخادم. والديسق: خوان من فضة (فارسي معرّب) يتأبّق: يختفي ويتستر. ينظر ديوان الأعشى، ص ٢١٧.

توظيف قصص الأمثال التاريخية في الشعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي

الصراعات والحروب، وكان العرب في كثير من الأحيان وقوداً لحروبهما، فالمنازرة حلفاء للفرس والغساسنة حلفاء للروم، إلى جانب الحروب الداخلية التي تدور رحاها بين العرب دائماً؛ فكل ذلك خلف وراءه قصصاً وأخباراً عن والمغامرات والبطولات وشجاعة الفرسان والمؤامرات والدسائس والخianات، يتناقلها الناس ويتسامرون بها في اجتماعاتهم ومجالسهم في زمن كانت المجالس والمسامرات الليلية من أهم وسائل الترفيه عن النفس والترويح عنها، وقد تنوعت تلك القصص ما بين قصص اجتماعية وتاريخية، وأخرى خرافية أسطورية، وغيرها، ونسجت الأمثال حولها، الأمثال التي تتلاءم مع أحداثها ومغزاها، لتكون مع الزمن قصصاً وأمثالاً، حملت إلينا جانباً مهماً من تاريخ العرب وذاكرتهم الجمعية، وتقاليدهم وعاداتهم، وتفكيرهم وثقافتهم وعقائدهم.

وقد تناول بعض الباحثين موضوع نشوء الأمثال القصصية التاريخية ومصدرها، ومن أهم الباحثين العرب الدكتور إحسان عباس في مقدمة تحقيقه لكتاب "أمثال العرب" للمفضل الضبي، الذي يعدّ أقدم مجموعة وصلتنا من الأمثال الجاهلية المقترنة بالحكاية، ومن ثم كانت قيمة هذا الكتاب كبيرة، لأنه أصبح مصدراً لأكثر الكتب التي ألفت بعده في هذا الموضوع.^(٤٥)

وقد سبق المفضل إلى التأليف في الأمثال عددٌ من الرواة والعلماء منهم عبيد بن شرية الجرهمي، وعلاقة بن كرشم الكلابي، وصحار بن عيَّاش العبادي، وقد نقل البكري عن هؤلاء الثلاثة في كتابه "فصل المقال"

(٤٥) أمثال العرب، المفضل الضبي، تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، ط/٢، ٤٠٣م - ١٩٨٣م، ص ٥. مقدمة التحقيق.

وعند المقارنة بينهم اتضح للمحقق الدكتور إحسان عباس اتفاق بعض روايات القصص بين بعضهم واختلافها أحياناً، وعزا ذلك غالباً لزيادات الرواة والمعلقين على الكتب.^(٤٦)

وأشار الدكتور عباس إلى شهود واضح في هذه الأمثال لما يمكن أن يسمى "الأمثال العنقودية" ويعني تفرع عدة أمثال عن قصة واحدة، أو ربط قصة واحدة بسلسلة من الأمثال، وردّ على الدكتور عبد المجيد عابدين الذي رأى أن طائفة كبيرة من هذه الأمثال كانت هي الأصل ثم لفقت لها القصص بعد ذلك لشرحها وتفسيرها، فذكر أن هذا قد يصدق على المثل المفرد الذي تُروى حوله أحياناً عدّة قصص، ولكن الأمثال العنقودية تحتاج خيالاً في الربط السردي لتطوّر الحوادث أولاً، فهذا الخيال هو الذي يقوم بعملية "الحكاية" المسترسلة، أمّا ما يصبح فيها أمثالاً فليس سوى الذرى الشاهقة في الحكاية أو نقاط التحول أو سطوع الحكمة في الحوار؛ وحين تصبح تلك الحكايات مجالاً للسمر والتسلية، يقف القاصّ فيها عند تلك النقاط الحيّة ويوردها في نغمة خاصة، فتصبح على كلّ لسان، وتُجتزأ من الحكاية كما يُجتزأ البيت السائر من القصيدة.

وبين أن هذه الأمثال العنقودية تتمثل في الأحداث الكبرى مثل حرب داحس وحرب البسوس، والزبّاء ملكة تدمر، وفي الدوران حول بعض الشخصيات الكبرى أو الغريبة مثل لقمان، والنعمان ابن المنذر والسليك بن السلّكة، ووضّح الفرق بين هذين الموضوعين؛ فالأمثال حول الأحداث يضبطها سياق متسلسل، بينما تجيء الأمثال حول "الأبطال" في صورة "عناقيد مفرقة" ليس فيها وحدة متسلسلة، ولهذا تجد الحكايات عن لقمان

(٤٦) أمثال العرب للزبي، تحقيق: إحسان عباس، ص ٣٧، من مقدمة التحقيق.

توظيف قصص الأمثال التاريخية في الشعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي

مما أورده المفضل ومما لم يورده أو عن الحارث ابن ظالم مفرقة في عدة مواطن، لا تربطها وحدة كبرى، كما أن شيئاً من الافتعال واضح في محاولة ربط بعض العناقيد أحياناً ببعض الآخر؛ ومما يدلّ على أن سياق الحكاية هو الأهمّ في قصص الأحداث الكبرى، أنّ الأمثال قد تنتهي، ولكنّ المفضلّ يعمدُ إلى إيراد القصة مكتملة ولو خلت من أمثال. (٤٧)

ووضّح الدكتور عباس أن معظم الأمثال الجاهلية نبتت في شرق جزيرة العرب، وتبدو صورة قبيلة تميم واضحة فيها، إلى جانب بكر وتغلب وإياد والحيرة، ويبدو أن الرواة في العصر الإسلامي أباحوا لأنفسهم إطلاق العنان للأخيلة حول ما يمكن أن يسمى "تحللاً" في العلاقات الجاهلية، دون أن يشعروا بحرج في ذلك، ومن دون أن يحسوا إزاء ذلك الماضي "بغيرة قومية"؛ ولهذا ربّما لم تكن صالحة لدراسة طبيعة المجتمع الذي نسبت إليه، ثم ذكر الدكتور عباس رأي المستشرق زلهام في وجوب الحذر من الاعتماد عليها في التاريخ الحضاري لأنها لم تسلم من التأثير الأجنبي؛ فإذا لم ترتفع إلى هذا المستوى ظلت أقاصيص أسطورية تؤخذ للتسلية؛ لأنها أيضاً لا تصلح أن تكون مادة تاريخية وقائعية، ذلك هو حال الحكايات المقترنة بالأمثال، فأما الأمثال نفسها فتظل ذات قيمة لغوية أدبية. (٤٨)

(٤٧) أمثال العرب، ص ٤٠-٤١.

(٤٨) أمثال العرب للزبيبي: ص ٤٢، والأمثال العربية القديمة، زلهام: ص ٥٣، والأمثال في النثر العربي القديم، د. عبد المجيد عابدين، دار مصر للطباعة، القاهرة، ط/١، ١٩٥٦م، ص ٣٧.

ولعلَّ المستشرق زلهام من أبرز من اهتموا بقصص الأمثال التاريخية في كتابه " الأمثال العربية القديمة " فقد خصَّص عنواناً للحديث عن (عمر قصص الأمثال ومصدرها) مورداً أثناء حديثه آراء كثير من الدارسين غيره، لا سيما " فرايتاج" الذي صنع جداول رتب فيها الأمثال مع قصصها ترتيباً تاريخياً، فعقب زلهام على عمله قائلاً: " ولم يخطر على بال فرايتاج هذا خاطر القريب، وهو أن تكون القصص التي تروى مع الأمثال مخترعة، نسجت خيوطها على ضوء هذه الأمثال، تماماً كما ترتبط القصص التبريرية ببعض أبيات الشعر العربي."^(٤٩)

ونقل عن بول أيضاً شكّه بهذه الأمثال وقصصها: "حقاً يمكن أن يكون الأساس التاريخي المروي لنا، بالنسبة لهذا المثل أو ذلك مقارباً للحقيقة، غير أننا لا نملك الوسيلة التي نقرر على أساسها في كل حالة ما إذا كانت الوقائع التاريخية التي تحكيها هذه القصص وقائع حقيقية أو مزيفة؛ لأنّ ما نعرفه عن الجزيرة العربية قبل الإسلام وعن تاريخ القبائل هناك قليل جداً."^(٥٠)

ويضيف زلهام أن بعض الأخبار القصصية قام بوضعها لغويون ليعلّلوا بها مثلاً من الأمثال وأنها اتخذت طابع الحكاية المسلية لا سيما في العصور الإسلامية.^(٥١)

ثم يشير إلى أن قصص أيام العرب لم تكن وليدة الخيال الشعبي أو من صنع أحد أعراب البادية، ولكن كان رواتها رجالاً مثل غسان بن ذهيل

(٤٩) الأمثال العربية القديمة، زلهام، ص ٥٠.

(٥٠) المرجع السابق، ص ٥١..

(٥١) المرجع نفسه، ص ٥٠ - ٥١.

توظيف قصص الأمثال التاريخية في الشعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي

السليطي ومحمد بن كعب القرظي، ودغفل، وعبيد بن شرية، وذكر رأي كاسكل في أن هذه القصص لا قيمة لها تاريخياً إلا في الأسماء والهيكل العام للحوادث؛ لأنها لم تسلم من التأثير الأجنبي.^(٥٢)

ثم ذكر زلهاميم أهم سمات هذه القصص، ومن أهمها ذكر شخصيات تاريخية أو خرافية أو حيوانات، أو أماكن، أو نباتات، وأن هذه القصص تمثل المهارة والتخصص والفضيلة والخطأ، وغير ذلك من الصفات، وذكر أن بعض شخصياتها مجهول وبعضها مشهور كلقمان والسموعل وحاتم. وأشار إلى أن كثيراً من هذه القصص محلها قبل الإسلام قصور اللخمييين في الحيرة، وربما جاء بعضها عن طريق الغساسنة في الشام، ومن الممكن أن يكون بنو تميم الذين كان مركزهم إمارة اللخمييين في الحيرة، هم الذين نقلوا هذه الموضوعات، والملاحظ أن كثيراً من قصص الأمثال تروى عن أمراء الحيرة وعن قبيلة تميم الكبيرة، وأنه ربما كانت في كتاب تميم الذي ذكره بشر بن أبي خازم في شعره أو الطرماع:

وَجَدْنَا فِي كِتَابِ بَنِي تَمِيمٍ أَحَقُّ الْخَيْلِ بِالرَّكْضِ الْمُعَارِ

كما يبدو في بعض الأحيان تأثر شخصيات هذه القصص بتراث العالم القديم (لاسيما التراث الهليني) مثل زنوبيا والزباء وأوريا وطرفة وغير ذلك.^(٥٣)

(٥٢) المرجع نفسه، ص ٥١.

(٥٣) المرجع نفسه، ص ٦٤، والبيت في ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، عني بتحقيقه د. عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٠م، ص ٧٨. ولم أجد البيت في ديوان الطرماع، الذي عني بتحقيقه د. عزة حسن، دار الشرق العربي، بيروت، ط/٢، ١٩٩٤م.

وفي أيهما أسبق في قصص الأمثال، المثل أو القصة يقول زلهاميم: " ويبدو في كثير من الحالات أن القصة تسبق المثل؛ لأن الأمثال في هذه الحالة تحتوي على المغزى من القصة، أو تشرح موقفاً معيناً لا يفهم إلا من سياق القصة.^(٥٤)

وفي الأحوال كلها لا يستطيع أحد أن ينفي القيمة الأدبية واللغوية لهذه الأمثال، وأن كثيراً من الأمثال المرتبطة بالقصص التاريخية، وإن لحق بعضها التغيير والتحريف، لكن معظمها له أصل واقعي يعود إليه، كقصص الأنبياء مثل نوح عليه السلام، و قصص عاد وثمود، وقصص جذيمة والزباء، وحرب البسوس، وقصة السموع وامرئ القيس.

رابعاً_ قصص الأمثال التاريخية عند عديّ بن زيد العبادي:

أ- التعريف بعديّ بن زيد العبادي (ت نحو ٣٥ ق. ٥ - ٩٠ م) ^(٥٥):

لا بد أن نتعرف إلى شاعرنا عدي بن زيد العبادي وإلى أهمّ المؤثرات في ثقافته وشعره، فعدّيّ شاعر نصراني من قبيلة تميم، والعباد لقب لقبائل شتى اجتمعت في الحيرة، تلقبوا بهذا اللقب لأنهم اجتمعوا على النصرانية، وأنفوا أن يقال لهم العبيد، فسموا بـ (العباد).^(٥٦) وكانت قبيلة تميم تنزل في القسم الشرقي من جزيرة العرب، وقد هرب جدُّ عدي من اليمامة إلى

(٥٤) الأمثال العربية القديمة، زلهاميم، ص ٧٠.

(٥٥) الأعلام، خير الدين الزركلي، ط ١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ٢٢٠/٤.

(٥٦) ديوان عدي بن زيد العبادي، حققه وجمعه: محمد جبار المعبيد، بغداد، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، ٩٦٥م، ص ٩- ١٠، وقيل غير ذلك، ينظر المصدر نفسه.

توظيف قصص الأمثال التاريخية في الشعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي

الحيرة خوفاً من دم أصابه في قومه، واستطاع أن يكون له مكانة في المدينة وعند ملوكها، وبفضل ثبات مركز أسرته تمكن عدي فيما بعد أن يكون له أثر فعال في تنصيب ملوك الحيرة.^(٥٧)

فقد تقرب عدي إلى البلاط الفارسي، وصار كاتباً لكسرى، وارتفعت مكانته عنده، حتى استطاع أن يقدم النعمان إلى كسرى ليملكه الحيرة، ما أكسبه عداوة بني مريم الذين أرادوا ملكاً آخر غير النعمان، واستطاع رأس هؤلاء فيما بعد أن يوغر قلب النعمان على عدي، فحبسه في أحد سجونه في الحيرة، وطال سجنه هناك، حتى أرسل كسرى للنعمان طلباً لإخراجه، إلا أن النعمان قتله، وأرسل لكسرى أنه قتله قبل وصول رسالته إليه، وامتد أثر عدي بعد موته في محاولة ابنه زيد الثأر له من النعمان، فقد وشى عنه عند كسرى وشاية انتهت به تحت أرجل الفيلة.^(٥٨)

أمّا عن صفات عدي، فقد كان فارساً شجاعاً رامياً، تعلم لعب العجم على الخيل بالصوالة وغيرها، وتأدب بأداب أبناء الملوك والأمراء، وكان ذا معرفة واسعة حملت الثقافة العربية والفارسية، وهو أول من كتب بالعربية في إيوان كسرى، وكان يترجم له بالفارسية ما يرد من كتب العرب. ومما أثرى ثقافة عدي أن كسرى أرسله في وقت مبكر من حياته إلى قيصر الروم بهدية، فوصل القسطنطينية والتقى بالقيصر، ومرّ بالشام في طريقه، ويقال إن أول ما قاله من الشعر بدمشق، وقد كان لهذه الرحلة أثر كبير في توسيع معارفه وثقافته، وقد أفادته في تأليف كتاب في تاريخ

(٥٧) المصدر السابق، ص ١٠.

(٥٨) ديوان عدي بن زيد العبادي، المصدر نفسه، ص ١١-١٢. وهناك روايات أخرى في مقتل النعمان وسببه.

الروم ذكره المسعودي واعتمد عليه في تاريخ الروم، وذكر الجاحظ أن له كتباً أخرى غيره.^(٥٩)

وأما شعر عدي فقد تنوعت أغراضه ما بين الغزل ووصف الخيل والخمر، وغيرها، قبل السجن، وفي فترة السجن كانت أشعاراً تبتت الحزن والألم والعتاب وتترع إلى الذكريات الماضية المشرقة. وقد تميّز شعره بجمعه بين البداوة والحضارة، فأثر بيئة الحيرة وتاريخها وثقافتها واضح في شعره، وفي سهولته ورقة ألفاظه، وكذلك نرى في شعره الكثير من الألفاظ الفارسية،^(٦٠) وفي الوقت نفسه لا يبتعد شعره عن الروح العربية التي تميّز بها الشعراء الجاهليون، وقد نبّه بعض العلماء كالجاحظ وابن سّلام أن اضطراباً وخلطاً وقع في شعره كان من أسبابه سهولة ألفاظه ورقتها.^(٦١) وذكر الجاحظ اهتمام أهل الحيرة بشعره، وكذلك علماء العربية، فقد قال أبو زيد النحوي: "لو تمنيت أن أقول الشعر ما قلت إلا شعر عدي بن زيد"^(٦٢)

(٥٩) المصدر السابق، ص ١٥ - ١٦، والحيوان، للجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط/٢، ١٩٦٥م، ١٩٧/٤.

(٦٠) ينظر اقتراض العربية من الفارسية، الشاعر عدي بن زيد العبادي نموذجاً، سعد الدين المصطفى، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، مجلد ٨١، الجزء ١، ٢٠٠٦م، ص ١٠٥ وما بعدها.

(٦١) ديوان عدي بن زيد العبادي، ص ١٦، والحيوان، للجاحظ، ١٩٧/٤.

(٦٢) الحيوان، ١٤٩/٧.

ب_ قصص الأمثال في شعر عدي بن زيد العبادي:

إنّ ظاهرة ضرب الأمثال على اختلاف أنواعها سواء أكانت قصصية أم غيرها في شعر عدي سمة واضحة، تساعده على قياس النظير بالنظير، والمواقف بما يلائمها، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها تمثله بدودة القز^(٦٣)، وهو مثل يضرب لمن يتعب نفسه لأجل غيره، ومن يأتي للهلاك لنفسه من عمله، فهي لا تزال تنسج على نفسها وهي حية حتى تموت وتهلك^(٦٤)

ولا تكُ في الإلحاحِ في إثرِ فائتِ تحاولُ منه فائتاً ليسَ يُطلبُ
كصانعةِ القزِّ التي كلَّما ارتدَّتْ بصنعتها كانتْ إلى اللَّبثِ أقربُ

ومن ذلك ذكره عين الديك التي ضرب فيها المثل بالصفاء، فقيل "أصفي من عين الديك"^(٦٥) يقول^(٦٦)

ثلاثةٌ أحوالٍ وشهراً محرماً تُضيءُ كعينِ العُترُفانِ المُحاربِ^(٦٧)

كما اتسم شعر عدي بشكل عام بمشاهده القصصية، كقصص اللهب، وقصص رحلات الصيد، وزيارة زوجته وابنته له في السجن، وتمييز عدي بتوظيفه للقصص والشخصيات التاريخية في شعره، فكثيراً ما كان يجد

(٦٣) مجمع الأمثال للميداني، ١٥٧/٢.

(٦٤) ديوان عدي بن زيد العبادي، ص ١١٦.

(٦٥) جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، ٥٦٧/١، وزهر الأكم في الأمثال والحكم، الحسن بن مسعود أبو علي اليوسي، تحقيق: د. محمد حجي ود. محمد الأخضر، الشركة الجديدة- دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط/١، ١٩٨١م، ٢٥٤/٣.

(٦٦) ديوان عدي بن زيد العبادي، ص ١١٨.

(٦٧) المصدر السابق ص ١١٨، العترفان: هو الديك الذي يؤثر الدجاج بالحب، وكأنه منجم أو صاحب أسطرلاب. ينظر: الحيوان للجاحظ، ٤٧٩/٧.

فيهما تعبيراً يحمل معانيه ومضامينه الشعرية، ويعبّر عن حالته النفسية، فتعدو تلك القصص والأمثال الملاذ الذي يلوذ به، لتأكيد ما يحمل من أفكار ومعانٍ من جانب، وما تحقّقه من توازن نفسي وفكري مما تتقدمه من مواعظ وحكم من جانب آخر.

فمن أهمّ القصص التي يتردّد صداها في شعر عدي قصص الأقيوم السابقة، سواء أكانت عربية أم فارسية، فالشاعر يجمع بين الثقافتين، ولا بد أن ينعكس ذلك على شعره، ويتجلى في إبداعه، ومن أمثلة ذلك ذكره قصص الأكاسرة ومنهم، أنوشروان وسابور، وبنو الأصفر ملوك الروم، وملك الحضّر من حكام العرب القدماء في قصيدة واحدة يقول فيها: (٦٨)

أَيْنَ كَسْرَى كَسْرَى الْمَلُوكِ أُنُو شُرُوَانَ أَمْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ
وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْمَلُوكِ، مَلُوكِ الْـ رُومِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكَورُ
وَأَخُو الْحَضْرِ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دَجَّ لُهُ تُجْبَى إِلَيْهِ وَالْخَابُورُ

ومن ذلك ذكره لقصص ملوك الحيرة كالنعمان بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي اللّخمي، صاحب الخورنق القصر المعروف، ومنها قوله: (٦٩)

وَتَأْمَلْ رَبَّ الْخُورْنُقِ إِذْ أَشَّـ رَفَ يَوْمًا وَلِلْهُدَى تَفْكَيرُ
سِرَّهُ مَالَهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمِـ لِكُ وَالْبَجْرُ مَعْرُضًا وَالسَّدِيرُ
ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالـ مَّةَ وَارْتَهُمُ هُنَاكَ الْقُبُورُ

(٦٨) المصدر نفسه، ص ٨٧.

(٦٩) المصدر نفسه، ص ٨٩.

توظيف قصص الأمثال التاريخية في الشعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي

ومن الأقوام القديمة التي يذكر قصصها ويتمثل بها أيضاً قوم نوح وعاد
وتمود: (٧٠)

أَيْنَ أَهْلِ الدِّيَارِ مِنْ قَوْمِ نُوْحٍ ثُمَّ عَادٍ مِنْ بَعْدِهِمْ وَتَمُودُ

أَيْنَ آبَائِنَا أَيْنَ بَنُوهُمْ أَيْنَ آبَائِهِمْ أَيْنَ الْجَدُودُ

وفي إحدى قصائده يتمثل أيضاً بقباز والحيقار من ملوك الفرس، وملك
حمير، وسليمان بن داود عليه السلام، وبني الناصور: (٧١)

فَبِتُّ أُعَدِّي كَمْ أَسَافَتْ وَغَيَّرَتْ وَقَوَعُ المُنُونِ مِنْ مَسُودٍ وَسَائِدِ

صَرَ عَن قُبَاذًا رَبَّ فَارِسٍ كُلِّهَا وَحَشَّتْ بِأَيْدِيهَا بَوَارِقَ آمِدِ

عَصَفْنَ عَلَى الحَيْقَارِ وَسَطَ جُنُودِهِ وَبَيَّنَّ فِي لُدَّاتِهِ رَبَّ مَارِدِ

وَجئنَ بَتْرَكٍ مِنْ قَرَارِ بِلَادِهِمْ يَسِيرُ بِجَمْعِ كَالدَّبَا المْتَسَانِدِ

وَأخْرَجَنَ يَوْمَ الحَوْصِ سَيِّدَ حَمِيرِ بِحَرْبَةٍ جَنِيٍّ مِنَ الحَبَشِ حَارِدِ (٧٢)

وَمَلِكُ سَلِيمَانَ بْنِ دَاوُدَ زُلْزِلَتْ وَرِيدَانٌ قَدْ أَلْحَقَنَهُ بِالصَّعَائِدِ

وَخَلَفَ بَنِي النَّاصُورِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بَقِيَّةُ مَوْلُودٍ وَلَا ذِكْرُ وَالِدِ

وكما نرى الشاعر يذكر قصص الأقدمين بشكل عام نجده يتمثل أيضاً
بشخصيات تاريخية قيلت فيها الأمثال واشتهرت بين الناس كذكره لعنتيب،
وهم بنو عنتيب بن أسلم بن مالك، بطن من جذام من القحطانية، أغار
عليهم بعض الملوك فسبى الرجال، فكانوا يقولون: إذا كبر صبياننا لم

(٧٠) المصدر نفسه، ص ١٢٢.

(٧١) المصدر نفسه، ص ١٢٤.

(٧٢) الحاردي، الغاضب، اللسان (حرد).

يتركونا حتى يفتكونا، فلم يزالوا عنده حتى هلكوا، فضربت العرب مثلاً فقالوا: "أودى عتيب" (٧٣) يضرب لمن هلك وهو مغلوب: (٧٤)

تُرَجِّبُهَا وَقَدْ صَابَتْ بِقُرٍّ كما ترجو أصاغرها عتيبُ

وكذلك نجد ذكراً لقدار بن سالف عاقر ناقة صالح، الذي ضربت فيه العرب الأمثال في الشؤم، فقيل: " أشأم من أحمر عاد" (٧٥)، يقول عدي: (٧٦)

فَمَنْ يَهْدِي أَخَا لَذَنَابٍ لَوْ فَأَرْشُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ جَارُ
وَلَكِنْ أَهَلَكْتَ لَوْ كَثِيراً وَقَبْلَ الْيَوْمِ عَالَجَهَا قُدَارُ

ج _ قصة جذيمة الأبرش والزبَاء، وتوظيفها في شعر عدي:

لعلَّ من أهم قصص الأمثال التي نستطيع أن نقول إنها تشكل نموذجاً متكاملًا لقصص الأمثال التاريخية في شعر عدي بن زيد العبادي قصة الزبَاء وجذيمة وقصير وعمرو بن عدي اللخمي (القرن الثالث الميلادي) التي اشتهرت شهرة واسعة، وكان لها أثر في حياة الناس والمجتمع، فجعلوا من أحداثها أمثالا سرت بينهم وانتشرت، ذكر منها ابن الأثير في أثناء سرده للقصة ما يزيد على خمسة عشر مثلاً. (٧٧) وملخص هذه القصة عنده أن الزبَاء ملكة تدمر أرادت الانتقام من جذيمة الأبرش لأنه قتل

(٧٣) مجمع الأمثال للميداني، ٣٧١/٢، والمستقصى في أمثال العرب، أبو القاسم محمود جار الله الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/٢، ١٩٨٧م، ٤٢٩/١.

(٧٤) ديوان عدي بن زيد العبادي، ص ١١٥.

(٧٥) مجمع الأمثال، ٣٧٩/١.

(٧٦) ديوان عدي بن زيد العبادي، ص ١٣٣.

(٧٧) الكامل في التاريخ لابن الأثير، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط/١، ٣١٦-٣٢٠.

توظيف قصص الأمثال التاريخية في الشعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي

أباها، فلجأت إلى الحيلة للانتقام منه، إذ أوهمته برغبتها بالزواج منه، فصدقها وجاء إليها إلى تدمر، فقتلته، وكان عند جذيمة رجل حازم أريب يدعى قصير نصح جذيمة ألا يذهب لكنه لم يأخذ بنصيحته، فصمم على أخذ ثأر جذيمة بنفسه أيضاً من خلال اللجوء إلى الحيلة، إذ ذهب إلى الزباء بعد أن جدع أنفه مدّعياً أن عمرو بن عدي فعل به ذلك لأنه غدر بخاله جذيمة، فصدقته الزباء، ووثقت به، واستأمنتها، وحقق لها أرباحاً في تجارة لها، فزادت ثقتها به، وفي المرة التالية في رحلته التجارية أحضر معه رجالاً أشداء من قومه دخلوا المدينة بالحيلة وقتلوا سكانها، ولما رأت الزباء ذلك حاولت الهرب من نفق كانت قد أعدته لمثل هذا اليوم، ولكن قصيراً كان عالماً بأمره، فوضع عمرو بن عدي على بابها، فلما رآته الزباء مصّت سماً قاتلاً وضعت في خاتمها قائلة: "بيدي لا بيدك عمرو" وقيل قتلها عمرو بسيفه. وهذه الرواية التي ذكرها المفضل الضبي،^(٧٨) وابن الأثير^(٧٩) هي الرواية العربية، وهي تختلف عن الرواية الفارسية، فقد حصل تحريف في قصة الزباء، أشار إليه الدكتور شوقي ضيف فقال: "وهي أسطورة لا تتفق في شيء ووثائق التاريخ الروماني الصحيحة عن الزباء، أو كما يسمونها زنوبيا زوج أذينة الذي قتل غدرًا، وقد نشرت سلطانها على العراق والشام ومصر وآسيا الصغرى، وصارعت الرومان صراعاً عنيفاً، حتى تصدى لها "أورليان" وانتصر على جيوشها، وحاصر حاضرتها تدمر، وطال الحصار ويئست من النصر، فحاولت الفرار ولكن جنوده تعقبوها وأسروها، وأخذوها معهم أسيرة إلى روما حيث قضيت بقية

(٧٨) أمثال العرب للضبي: ص ١٤٧.

(٧٩) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، مرجع سابق، (لا بيد عمرو)، ١/٣٢٠.

أيامها. وكأن لا علاقة بين شخصية زنوبيا التاريخية، وشخصية الزباء في القصة العربية، فقد غيرت في القصة جميع المعالم التاريخية، حتى مدينتها تدمر وضع القصاص مكانها مدينتين بنتهما على الفرات، وحتى اسمها وهو "زنوبيا" حُرّف إلى الزباء، وقد جلبوا جذيمة من الحيرة ليحل محل زوجها أذينة الذي قتل غدراً" (٨٠)

ولكن هذا التحريف لا يغير من كونها من قصص الأمثال التي نالت حظاً في المجتمع العربي، وانتشرت القصة وأمثالها انتشاراً واسعاً، وأن كثيراً من الشعراء تمثلوا ببعض أحداثها في شعرهم كنهشل بن حريّ الدرامي: (٨١)

ومولى عصائي واستبدّ بأمره كما لم يُطعْ بالبقَّتَيْنِ قصيرُ

فلمَّا رأى ما غبَّ أمري وأمره وولتْ بأعجازِ المطيِّ صدورُ

تمنّى أخيراً أن يكونَ أطاعني وقد حدثتْ بعدَ الأمورِ أمورُ

و المُخْبَلِ السَّعْدِي: (٨٢)

يا عمرو إني قد هويتُ جماعكم ولكلِّ من يهوى الجماعَ فراقُ

(٨٠) الفن ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط/١٠، ١٩٨٣م، ص ١٦، وينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، ط ٤، دار الساقى، بيروت، ٢٠٠١، ١٠٣/٥ وما بعدها.

(٨١) أمثال العرب للضبي، ص ١٤٧، وجمهرة الأمثال، ٢٣٥/١، ومعجم البلدان، شهاب الدين ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط/٢، ١٩٩٥م، (بقّة)

(٨٢) المخبل السعدي، حياته وما تبقى من شعره، حاتم الضامن، مجلة المورد العراقية، المجلد الثاني، العدد الأول، ١٩٧٣م، ص ١٢٧. وأمثال العرب للضبي، ص ١٤٨.

بَلْ كَمْ رَأَيْتُ الدَّهْرَ زَايِلَ بَيْنَهُ مَنْ لَا يُزَايِلُ بَيْنَهُ الْأَخْلَاقُ
طَابَتْ بِهِ الزَّبَاءُ وَقَدْ جَعَلَتْ لَهَا دُوراً وَمَشْرَبَةً لَهَا أَنْفَاقُ
حَمَلَتْ لَهَا عَمراً وَلَا بَخْسُونَةً مِنْ آلِ دُومَةَ رَسَلَةَ مِعْنَاقُ
حَتَّى تَفْرَعَهَا بِأَبْيَضٍ صَارِمٍ عَضْبٍ يَلُوحُ كَأَنَّهُ مِخْرَاقُ

والمتملمس: (٨٣)

وَمَنْ حَذَرَ الْأَيَّامَ مَا حَزَّ أَنْفَهُ قَصِيرٌ وَخَاضَ الْمَوْتَ بِالسَّيْفِ بِيَهْسُ
نِعَامَةٌ لَمَّا صَرَخَ الْقَوْمُ رَهْطُهُ تَبَيَّنَ فِي أَثْوَابِهِ كَيْفَ يَنْبَسُ

إلا أنها في شعر عدي بن زيد العبادي تمثل نموذجاً متكاملًا لقصص الأمثال التاريخية في الشعر يتتبع فيها الشاعر الأحداث من بدايتها إلى نهايتها، وكل حدث فيها يفضي إلى الحدث التالي حتى تنتهي القصة، مدرجاً الأمثال المتعلقة بالأحداث أثناء عرضه للقصة، وقد وظف الشاعر القصة والأمثال معاً في شعره ليبين من خلالها اتصالها بحياته الخاصة التي لعب التآمر والخيانة والغدر دوراً كبيراً فيها، وفي زجه في سجن النعمان بن المنذر بمؤامرة من أعدائه الحاقدين الحاسدين، فالشاعر يلجأ إلى الإسقاط التاريخي من خلال استحضار أحداث قصة جذيمة الأبرش والزباء وشخصياتها الماضوية التي يفصل أحداثها عن الشاعر ما يقارب ثلاثة قرون، كي يعزي نفسه بهذه القصة التي تمثل مؤمراتٍ وغدراً، ويبدد قلقها واضطرابها، ويقنعها أن ما حصل معه ليس بطارئ ولا

(٨٣) المصدر السابق، ١٤٨، وينظر ديوان شعر المتملمس الضبعي، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ١١٣-١١٦.

مستبعد في بلاط الحكام والملوك، كما يعبر عن العلاقة الأرتلية التي تربط الفن بالتاريخ من خلال اتخاذ شعره كوثيقة لتأريخ هذه القصة المهمة في تاريخ العرب، إلى جانب تجسيد البعد التاريخي للقصة لانتماء الشاعر ووفائه لتاريخ الحيرة التي نشأ وترعرع فيها، وبين أهلها.

والقصيدة تتكون من أربعة وعشرين بيتاً،^(٨٤) ويمكن تقسيمها إلى أربعة أقسام؛ القسم الأول من البيت الأول إلى الخامس، ويتحدث بعد بيت فريد في وصف الطلل عن بداية مكيدة الزباء لجذيمة ومحاولتها أن يذهب إليها ليخطبها، واقتراح قصير ألا يستجيب لرغبتها لأنه شعر بمكيدة وراء ذلك، ورفض جذيمة لاقتراح قصير وموافقته على طلبها. والقسم الثاني من البيت السادس إلى البيت الحادي عشر ويتحدث عن غدر الزباء بجذيمة ويصف مقتله في تدمر مع رجاله، ونجاة قصير منهم فقط وهربه على فرس جذيمة، والقسم الثالث من البيت الثاني عشر إلى البيت التاسع عشر ويتحدث عن انتقام قصير وعمرو اللخمي من الزباء وقتلها بالحيلة أيضاً، وجاء القسم الرابع ليشمل الأبيات الأخيرة من عشرين إلى أربعة وعشرين، ولخص فيه الشاعر مغزى القصة، ووضّح العبرة منها.

وفيما يأتي تفصيل ذلك:

إذا بدأ الشاعر القسم الأول من قصيدته ببيت واحد في الوقوف على الأطلال بقوله:

أُبدتِ المنازلُ أم عُفينا تقادمَ عهدُها أم قد بَلينا

(٨٤) ديوان عدي بن زيد العبادي، ص ١٨٠-١٨٤.

ولعلّ بدء الشاعر بكلمة "بدلت" مع الاستفهام التعجبي له بعد نفسي يشير إلى تساؤله عن التبدل والتغيير الذي طرأ على الصداقة والعلاقة التي ربطت الشاعر بالنعمان، والشاعر مازال متعجباً وغير مصدق لما وقع من شقاق بينهما ومما ألمّ بالودّ السابق الذي كان يجمعهما، ومما أحاله إلى قطيعة وهجر.

ثم انتقل بعد ذلك مباشرة إلى مخاطبة من وجّه إليه هذه القصيدة، النعمان بن المنذر بن ماء السماء، موضحاً رغبته في ذكر هذه القصة، ولفت نظر النعمان إليها باستهلال تشويقي يلفت انتباه السامع من خلال الاستفهام التعجبي:

ألا أيُّها المثرى المرجى ألم تسمع بخطب الأولينا

ونلاحظ أنه لم يذكر اسم النعمان، وإنما ناداه بصفتين، الأولى "المثري"، وهو لفظ يدل على كثرة العدد من الناس والمال وعلى النعم التي يمتلكها النعمان، وإنما اختار الشاعر الثراء لأنه سوف يبيّن له أن هذا الثراء لن يدوم والدليل ما حصل مع الأقسام الأولين. وأمّا اللفظ الثاني "المرجى" وهو لفظ جاء بصيغة المبالغة أراد فيها الشاعر أن يبيّن أيضاً مكانة النعمان ومنزلته بين الناس. وأن هذه المكانة معرضة للزوال كما زالت مكانة الأقدمين، ورمى بهم خطب الزمان ومصائبه. فالمال والسلطة لا يدومان لإنسان مهما علا شأنه وسلطانه.

ثم يبدأ بسرد أحداث القصة ذكراً مكان القصة، في (بقّة) وهو موضع قريب من الحيرة كان ينزله جذيمة الأبرش ملك الحيرة، وقد جمع فيه الفرسان يستشيرهم بأمر الزباء، فأشار عليه قصير ألا يذهب إليها لأنه استشعر الغدر منها، وكان أريباً حازماً ناصحاً لجذيمة قريباً منه، وأشار

أن يكتب إليها كي تأتي إليه إن كانت صادقة، ولكن جذيمة لم يستجب له، فقال العبارة التي أصبحت مثلاً: " لا يُطاع لقصير أمر" (٨٥) فلما مضى إليها وأحاط به عسكرها، قال جذيمة: ما الرأي يا قصير؟ فأجابه: "ببقّة خلّفت الرأي" فضربت العرب ذلك مثلاً: (٨٦)

دعا بالبقّة الأُمراء يوماً جذيمةُ عصرَ ينجوهمُ ثبينا (٨٧)

فلم يرَ غيرَ ما ائتمروا سواه وشدَّ لرحله السّفَرَ الوضينا (٨٨)

فطاوعَ أمرهم وعصى قصيراً وكان يقولُ لو تبَعَ اليقيننا

ثم في القسم الثاني من القصيدة يتابع الشاعر في وصف المكيدة التي أوقعت بها الزبّاء بجذيمة، ويصف كيف تمكّنت منه، وكيف قُتل ومن معه من فرسانه، باستثناء قصير الذي فرَّ على (العصا) فرس جذيمة الأبرش

(٨٥) جمهرة الأمثال: ٢٣٤/١.

(٨٦) معجم البلدان، ياقوت: (بقة).

(٨٧) ونجَاهُ نَجْوًا وَنَجْوَى: سارَهُ. وَالنَّجْوَى وَالنَّجْيُ: السَّرُّ. وَالنَّجْوُ: السَّرُّ بَيْنَ اثْنَيْنِ، وَالاسْمُ النَّجْوَى، وَقَدْ يَكُونُ النَّجْيُ جَمَاعَةً مِثْلَ الصَّدِيقِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: خَلَصُوا نَجِيًّا. يَنْظُرُ: لِسَانَ الْعَرَبِ (نَجَا). وَثَبِينَا: ثَبِينٌ جَمْعُ ثَبَةٍ فَأَصْلُهُ مِنْ ثَابَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ إِذَا اجْتَمَعُوا. تَاجَ الْعُرُوسِ مِنْ جَوَاهِرِ الْقَامُوسِ، مُحَمَّدٌ مَرْتَضَى الزَّبِيدِي، مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ، مَطْبَعَةُ حُكُومَةِ الْكُوَيْتِ، الْكُوَيْتِ، ١٩٦٥م، (ثبو). وَالثَّبُونُ، بَضْمُ الثَّاءِ وَكسرها: جَمْعُ ثَبَةٍ، بِالضَّمِّ، وَهِيَ الْعَصْبَةُ مِنَ الْفَرَسَانِ. الشَّعْرُ وَالشَّعْرَاءُ، ابْنُ قَتَيْبَةَ الدَّنِيورِي، دَارُ الْحَدِيثِ، الْقَاهِرَةُ، ٥١٤٢٣، ٢٢١/١.

(٨٨) الوضين: حزام عريض منسوج بعضه على بعض من سيور أو شعر أو لآ يكون إلّا من جلد يشد به الرجل على البعير. لسان العرب، ابن منظور، والقاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/٨، ٢٠٠٥م، (وضن).

توظيف قصص الأمثال التاريخية في الشعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي

التي جاءت بها الأمثال، وهي بنت العصية فرس لإياد لا تجارى، حتى قيل " إن العصا من العصية"^(٨٩) فذهبت مثلاً:

لخطبته التي غدرت وخانت وهن ذوات غائلة لحينا
ودست في صحيفتها إليه ليملك بضعها ولأن تدينا
فأردته ورغب النفس يردي ويبيد للفتى الحين المبينا
وخبرت العصا الأبناء عنه ولم أر مثل فارسها هجينا^(٩٠)
ففاجأها وقد جمعت فيوجاً على أبواب حصن مصلتينا
توقدتم الأديم لراشيه وألفى قولها كذا ومينا^(٩١)

ثم يأتي إلى الجزء التالي من القصة، في سعي قصير للأخذ بثأر جذيمة، وجدعه أنفه كي تصدقه الزبباء وتأمنه، وهذا ما كان منها اتجاهه، وفي ذلك اشتهر المثل المعروف: "لأمر ما جدع قصير أنفه":^(٩٢)

ومن حذر الملاوم والمخاري وهن المنديات لمن مينا
أطف لأنفه موسى قصير ليجدعه وكان به ضينا
فأهواه لمارنه فأضحى طلاب الوتر مجدوعاً مشينا

(٨٩) مجمع الأمثال، الميداني ١٥/١

(٩٠) هو قصير بن سعد من لخم، وكان سعد تزوج أمة لجذيمة فولدت له قصيراً، فأمه أمة لذلك وصفه بالهجين. الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن الأثير الجزري، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط/١، ١٩٩٧م، ٣١٦/١.

(٩١) الأديم: النطع، الراهشان: عرقان في باطن الذراعين.

(٩٢) أمثال العرب، ص ١٤٦.

وَصَادَفَتْ امْرَأً لَمْ تَخْشَ مِنْهُ غَوَائِلُهُ وَمَا أَمِنَتْ أَمِينًا

ويأتي القسم الثالث بعد ذلك ليسرد عدي فيه نهاية القصة، وتمكن قصير وعمرو بن عدي من الزبء، ويبدو أنه اختار النهاية العربية التي تقول إن عمراً كمن لها وقتلها:

فَلَمَّا ارْتَدَّ مِنْهَا ارْتَدَّ صُلْبًا يَجْرُ الْمَالَ وَالصَّدْرَ الضَّغِينَا
أَتَتْهَا الْعَيْسُ تَحْمَلُ مَا دَهَاها وَقِنَعٌ فِي الْمَسُوحِ الدَّارِعِينَا
وَدَسَّ لَهَا عَلَى الْأَنْفَاقِ عَمْرًا بِشَكَّتِهِ وَمَا خَشَيْتُ كَمِينَا
فَجَلَّلَهَا قَدِيمَ الْأَثْرِ عَضْبًا يَصُكُّ بِهِ الْحَوَاجِبَ وَالْجَبِينَا

وينهي القصة بالقسم الرابع بأبيات تبين أن الزبء انتهى أمرها، وأصبحت خيالاً بعد عين، وكأنها لم تكن يوماً رغم ما وصلت إليه من الملك والثراء والنفوذ، ويأتي بعدها بيت في الحكمة يوضح أن كل إنسان يُعَمَّرُ في الحياة معرَّضٌ لحوادث الدهر ونوائبه، وأن لا حصون ولا مال ولا ولد ينقذه من الموت ويحقق له الخلود:

فَأُضْحِتْ مِنْ خَزَائِنِهَا كَأَنْ لَمْ تَكُنْ زَبَاءً حَامِلَةً جَنِينَا
وَأَبْرَزْهَا الْحَوَادِثُ وَالْمَنِيَا وَأَيُّ مُعَمَّرٍ لَا يَبْتَلِينَا
إِذَا أَمَهَلْنَ ذَا جَدِّ عَظِيمٍ عَظْفَنَ لَهُ وَلَوْ فِي طِيِّ حِينَا
أَلَمْ تَرَ أَنَّ رَيْبَ الدَّهْرِ يَعْلُو أَخَا النَّجْدَاتِ وَالْحَصْنَ الْحَصِينَا
وَلَمْ أَجِدِ الْفَتَى يَلْهُو بِشَيْءٍ وَلَوْ أَثْرَى وَلَوْ وُلِدَ الْبَنِينَا

فالشاعر إذن وظَّف هذه القصة وبعض الأمثال التي قيلت فيها في شعره لأنها تتلاءم وحاجته النفسية والظرف الذي يمرّ به، والمعاناة التي يعانها،

إلى جانب أنها قصة تاريخية معروفة بين أبناء مجتمعه في الحيرة ومشهورة بينهم، ولا يخفى أثر الحيرة وأحداثها في انتشار القصص بين العرب، ويرجو الشاعر من خلال رواية هذه القصة أن تترك أثراً عند النعمان الذي وجه له الحديث في البداية، لعله يتعظ بها وبما حدث مع هذه الشخصيات التي كانت من علية القوم، وكانت تتربّع عرش الحكم يوماً ما، لكنّ الدهر أصابها بنوائبه، فلا جدوى أمام فعله الذي يعمّ الناس جميعاً حتى وإن كانوا في حصون مشيدة، وعزّوا وملكوا وأنجبوا.

والشاعر في هذه القصة يقوم بدور الرواي الذي يسرد الأحداث متسلسلة من بدايتها إلى نهايتها ويبدو فيها قاصاً بارعاً متمكناً من أحداث القصة، فقد نسّق الأحداث ورتبها كما تقول الحكاية، وكان كل حدث يفضي بسلسلة إلى الحدث الذي يليه دون أن تتداخل الأحداث أو يؤثر بعض الوصف وما أضفاه الشاعر عليها من متعة وتشويق في تسلسله، أو يؤدي إلى قطعها، أو فقد حدث مهم منها، ونجد الأحداث تتطور وتتنامى بشكل تلقائي ومباشر مبيّنة عناصر الصراع وشخصياته وزمانه ومكانه، إلى أن أفضت الأحداث إلى نهاية القصة التي كانت بموت الزباء مقتولة على يد عمرو بن عدي. ووصول الشاعر إلى نهاية القصة أمر غاية في الأهمية، ليظهر المغزى الحقيقي للقصة، ويوضّح ويؤكد نهاية الغدر والخيانة وعاقبتهما الوخيمة، ولتكون حكمة يتعظ بها النعمان، وأن الدهر يصيب الجميع بنوائبه أياً كانوا، ولم يكتف الشاعر بذكر النهاية بل عقب عليها بأبيات من الحكمة تبين المغزى والهدف من القصة.

فقد حدّد الشاعر في هذه القصة ما نستطيع أن نقول عنها الأركان الرئيسية لها، فقد حدّد زمان القصة فذكر أنها من الماضي من زمان

الأولين، وحدد المكان ببقة، وهو موضع قريب من الحيرة، وذكر الشخصيات التي دارت القصة حولها: مصرحاً باسم جذيمة، قصير، عمرو، ولم يذكر اسم الزباء، وإنما قال (لخطبته) واصفاً إياها بالغدر والخيانة، معقّباً على وصفها بقوله: "وهن ذوات غائلة لُحينا" وهذه العبارة توضح أنها تمثل عدوة له من جانب وتبين طرفاً من النظرة السلبية للمرأة في ذلك العصر وعند الشاعر، فهي كما قال الشاعر صاحبة مصائب، تستحق اللعن والشم. في حين لم نجده يبدأ القصة من أولها بذكر مقتل أبيها على يد جذيمة، وإنما بدأها من غدرها بجذيمة، والسبب في ذلك أن النعمان بن المنذر من ولد ابن أخت جذيمة (عمرو بن عدي اللّخمي) الذي انتقم له وصار الملك إليه بعده، وهو أول من اتخذ الحيرة منزلاً من ملوك العرب،^(٩٣) ويمثل شخصية لها مكانتها ومنزلتها في تاريخ الحيرة عامة وعند النعمان بن المنذر خاصة، وبهذا يؤكد عدي بن زيد العبادي أن ولاءه لهم، ويصف الزباء بالمخادعة والغادرة، وفي الوقت نفسه يريد من النعمان أن يتعظ بما حلّ بأجداده وما حصل لهم من غدر ومكائد، فجذيمة الذي كان ملكاً عظيماً منيعاً في قصره، دارات عليه الدوائر، وهوى، إنه يوظف أحداث القصة لأكثر من غرض وهدف.

واعتمد الشاعر في سرده للقصة على ضمير الغائب لكل شخصيات القصة، ولم يعتمد ضمائر المتكلم والحوارات المباشرة بينهم، وإنما جاء الحوار بشكل غير مباشر على لسانه ومن خلال روايته للأحداث.

وأما عن الأمثال التي تفسرها قصة الشاعر في الأبيات والتي ذكرتها كتب الأمثال، وقد سارت واشتهرت بين العرب، فهي أربعة، الأول منها:

(٩٣) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، مرجع سابق، ٣٢٠/١ .

توظيف قصص الأمثال التاريخية في الشعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي

"ببقة خلفت الرأي"^(٩٤) وهذا القول قاله قصير بن سعد اللخمي لجذيمة الأبرش حين وقع في يد الزبباء، والمعنى قُطِعَ هذا الأمر هناك، يعني لما أشار عليه أن لا يتزوجها فلم يقبل جذيمة قوله، والمثل الثاني هو " لا يطاع لقصير أمر"^(٩٥) قاله قصير لما رفض جذيمة مشورته، والمثل الثالث هو " العصا لا يشق غبارها"^(٩٦) والعصا هي فرس جذيمة قاله قصير حين أشار عليه بالهرب عليها. و المثل الرابع هو "لأمر ما جدع قصير أنفه"^(٩٧) قالتها الزبباء لما رأت قصيراً مجذوعاً.

لقد استفاد الشاعر من القصة والأمثال التي ارتبطت بها، وذكر قصص هذه الأمثال بالتفصيل دون أن يورد المثل بشكل مباشر أو بلفظه الدقيق الذي ألفناه عليه في كتب الأمثال، وهذه ملاحظة عامة في الشعر الجاهلي، فالشاعر عندما يضمن المثل شعره قد لا يلتزم بالصيغة الماثورة التي روى بها المثل؛ لأنه يكون مقيداً بالوزن والقافية التي قد لا تتفق مع الصيغة الدقيقة للمثل، فيتصرف فيه حينئذ ليتفق مع الوزن الشعري، والملاحظ أيضاً أن رواية هذه الأمثال جاءت مختلفة عند الرواة وفي كتب الأمثال، فالمثل الأول الذي رواه ياقوت بـ: " ببقة خلفت الرأي"^(٩٨) نجده عند الضبي والعسكري وعند الهاشمي برواية: "ببقة صرم

(٩٤) مجمع الأمثال، ٩٠/١.

(٩٥) الأمثال لابن سلام، ص ٣٠٠.

(٩٦) المستقصى في أمثال العرب، ٣٣٣/١.

(٩٧) مجمع الأمثال، ١٩٦/٢.

(٩٨) معجم البلدان، (بقة).

الأمر^(٩٩) في حين نراه عند الميداني والزمخشري بالروايتين السابقتين،^(١٠٠) وعند البكري واليوسي برواية أخرى هي: "ببقة تركت الرأي"^{١٠١} والشاعر جاء به مع المثل الذي يليه وهو "لا يطاع لقصير أمر" في ثلاثة أبيات متتالية محافظاً من خلالها على تسلسل أحداث القصة وروايتها. ويبدو أن لا ضابط يضبط المثل أو روايته كالشعر، ويبدو أن الرواة تصرفوا في روايته، أو لحقه التغيير والتبديل الذي يلحق النثر عادة أكثر من الشعر كونه غير مقيد بوزن أو قافية، ويختلف هذا الأمر من مثل لآخر؛ فالمثل السابق "لا يطاع لقصير أمر" لم يلحق روايته تغيير واختلاف كثير، فهو عند الضبي، وابن سلام، والهاشمي، والعسكري، والميداني، واليوسي بلفظ "لا يُطاع لقصير أمر"^(١٠٢) وقد ذكر العسكري رواية أخرى هي "ليس لقصير أمر"^{١٠٣}. وقد جاء تفسير المثليين عند الشاعر بأبيات ثلاثة:

دعا بالبقة الأمراء يوماً جديمة عصر ينجوهم ثبينا
فلم ير غير ما ائتمروا سواه وشد لرحله السقر الوضينا

(٩٩) أمثال العرب، ص ١٤٥، والأمثال للهاشمي، ص ١٠١، وجمهرة الأمثال، ٢٠٣/١.

(١٠١) مجمع الأمثال، ١/٩٠ و ١/٢٣٣، والمستقصى، ٦/٢.

(١٠١) فصل المقال، ١٢٥، وزهر الأكم، ١/٣١٥، ورواه بتقديم الفعل بلفظ "تركت الرأي ببقة" ٩٠/١.

(١٠٢) ينظر أمثال العرب، ص ١٤٤، والأمثال للهاشمي، ص ٢٨١، وجمهرة الأمثال، ١/٢٣٤ و ٢/٣٩٤، ومجمع الأمثال، ١/٢٣٣، وزهر الأكم، ١/١٩٠.

(١٠٣) جمهرة الأمثال، ٢/١٧٩ و ٢٠٣.

فطاوع أمرهم وعصى قصيراً وكان يقول لو تبّع اليقينا

أما المثل الثالث الذي جاء تفسيره في بيت واحد لعدي:

وخبرت العصا الأنبياء عنه ولم أر مثل فارسها هجينا

فقد حصل اختلافٌ كثيرٌ في روايته، وفي نسبته أيضاً؛ ففي مجمع الأمثال: "يا ضلّ ما تجري به العصا" وذكر الميداني أن قائل المثل هو عمرو بن عدي لما رأى العصا وهي فرس خذيمة عليها قصير^(١٠٤). وجاء عند الضبي بالرواية السابقة وبرواية "خير ما جاءت به العصا" وذكر الضبي أن جذيمة قاله لما رأى العصا فرسه مدبرة تجري بقصير^(١٠٥)، في حين جاءت رواية المثل عند العسكري: "خير جاءت به العصا"^(١٠٦)، وعند الهاشمي والزمخشري المثل هو: "العصا لا يشقّ غبارها"^(١٠٧) وقائل المثل عندهما قصير قاله لجذيمة لما أشار عليه بالهرب عليها. وأمّا اليوسي فقد رواه بلفظ: "يا ذلّ ما تجري به العصا"^(١٠٨) وهناك مثل آخر يتقاطع مع هذه الأمثال وقد ذكروا له قصصاً مختلفة ونسب إلى غير رجل، ذكرته بعض كتب الأمثال برواية: "العصا من العُصيّة" ويضرب في تشبيه الرجل بأبيه^(١٠٩).

(١٠٤) مجمع الأمثال، ٤١١/٢.

(١٠٥) ينظر أمثال العرب، ص ١٤٥ و١٤٦.

(١٠٦) جمهرة الأمثال، ٢٣٥/١.

(١٠٧) أمثال الهاشمي، ص ٩٤، و المستقصى، ٣٣٣/١.

(١٠٨) زهر الأكم، ١٩١/١.

(١١٠) ينظر الأمثال لابن سلام، ص ١٤٥، والأمثال للهاشمي، ص ٩٥، وجمهرة

الأمثال، ٤٠/٢، ومجمع الأمثال، ١٥/١، وفصل المقال، ص ٢٢١.

والمثل الأخير الذي نجد تفسيره في قول عدي:

أطفَ لأَنفه الموصَى قصيرٌ ليجدعه وَكَانَ بهِ ضنينَا
فأهواهُ لِمَا ربهِ فأضحى طِلابَ الوترِ مجدوعاً مَشِينَا

فهو: "لأمر ما جدع قصير أنه" فقد جاءت روايته في معظم كتب الأمثال باللفظ السابق^(١١٠)، وذكره الزمخشري بلفظ: "لأمر ما حزَّ قصير أنه"^(١١١) إذاً لا قانون واضح ولا مقياس محدد يحكم هذه الأمثال وغيرها، فبعضها قد يحافظ على لفظه دون تغيير، وبعضها قد يلحقه تغيير طفيف، وبعضها الآخر قد يُختلف في أصله ونشأته وقائله، ولعلَّ السبب في ذلك أن بعض الأمثال نسي قائلوها، وبقي المثل الذي أعجب الناس وأحبوه وانتشر بينهم، فجاء بعض الرواة واخترعوا قصصاً وأسماء لتلك الأمثال.

وأما السمة العامة لألفاظ القصة وأمثالها أنها مفهومة في بيئتها وعصرها، وبعيدة عن الألفاظ الغريبة والوحشية، معبرة عن المعنى الذي أراده الشاعر موضحة له، وتراكيبها مترابطة بعيدة عن التعقيد والتداخل، وقد فسرت القصة الأمثال، وبينت معانيها المقصودة، وجمع الشاعر من خلالها أحداث القصة وأحاط بها إحاطة شاملة، وقد أضفى تتابع تلك الأمثال في القصة مع أحداثها جمالاً وتشويقاً وإثارةً من خلال الربط الذي ينصرف إليه الذهن بين القصة والمثل، وانسجامهما وسيرهما جنباً إلى جنب للوصول في النهاية إلى ختام القصة ومغزاها. فالبناء الحكائي في

(١١٠) ينظر أمثال الضبي، ١٤٦، والأمثال للهاشمي، ٢١٦، ومجمع الأمثال،

١٩٦/٢، وزهر الأكم، ٢٠٨/١.

(١١١) المستقصى، ٢٤٠/٢.

توظيف قصص الأمثال التاريخية في الشعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي

القصة واضحٌ، والسرد القصصي يكشف عن قدرة فنية عالية ومتميزة في استيعاب الأحداث والأمثال المتعلقة بها وتطويعها للهدف، مما أكسب القصيدة إلى جانب الوحدة الموضوعية وحدةً عضوية وإطاراً فنياً متماسكاً، فكانت القصيدة كائناً حياً كل عضو فيه متماسك وممتزج مع الآخر متناغم معه، ولا بد أن نشير إلى أن ظاهرة السرد القصصي في الشعر الجاهلي ظاهرة مألوفة، ولها أبعادها الرمزية والتعبيرية في نفوس الشعراء والمتلقين^(١١٢)، ولم تعدم القصيدة الوصف الذي يخدم الغرض دون أن يبعدنا عن الموضوع، لا سيما وصفه الزبّاء بالغادرة والخائنة ليؤكد مسألة الغدر والخيانة التي تعرّض لها، ووصف قصير بالهجين، هذه الصفة التي أراد الشاعر أن يبيّن من خلالها أن قصيراً اللخمي على الرغم من أنه هجين، وأن أمّه كانت أمةً إلا أنه استطاع أن يدرك ثأر جديمة وينتقم له، وأن يكون وفياً له حتى بعد موته، وهذه إشارة من عدي إلى وفائه للنعمان وإخلاصه له وإن لم يكن من قبيلته وأسرته. فهذه الصفات وغيرها إلى جانب وصفه النعمان في بداية القصيدة بالمثري والمُرَجّي خدمت غرض الشاعر والمعاني التي أرادها.

نحن أمام نموذج متكامل لقصص الأمثال استطاع الشاعر من خلال هذه القصة التاريخية وما أضافه عليها من أسلوبه وحكمته وثقافته أن يستثمرها وأمثالها في إيصال أفكاره إلى النعمان ابن المنذر الذي انصرف عنه إلى سماع كلام الحاسدين والمبغضين والكائدين، وحاول أن يعزي نفسه أيضاً بأن هذا الغدر لم يأت من النعمان نفسه، وإنما من الحاقدين الواشين، تماماً

(١١٣) ينظر القصة والحكاية في الشعر العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي، د. بشرى الخطيب، دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد، ١٩٩٠، ص ٣٦٢.

كما جاء الغدر بجذيمة من غريب وليس من قريب، وفي هذا تذكير للنعمان بالمودة التي كانت بينهما لعل قلبه يشفق عليه ويخرجه من سجنه، وهو الذي كان يوماً ما سبباً في وصوله إلى كرسي الحكم.

لقد استفاد الشاعر من هذه القصة التاريخية المعروفة وأمثالها ووظفها في شعره خير تمثيل، واستطاع ببراعة إعطاء الأحداث حقها والموازنة بينها، دون أن يجعل حدثاً يطغى على آخر، وهذا يدل على وضوح أحداث القصة في ذهنه. كما أن الشاعر لم يغفل نفسه وشخصيته وأفسح لها مجالاً في القصيدة، فصوته واضح في بدايتها، وفي نهايتها في بيان مغزاها والحكمة منها. فقد خصص لنفسه مكاناً ككل الشخصيات في القصة، حتى غدت القصيدة جزءاً من قصته مع النعمان والظلم الذي لحق به نتيجة المكيدة التي وقعت له من الحاسدين والواشين.

وقد حافظ الشاعر على أحداث القصة كما عُرِفَت واشتهرت بين العرب دون أن يغيّر أو يبذل فيها، واختار نهايتها العربية على الرغم من معرفته الواسعة وثقافته الفارسية والرومانية التي أضيفت إلى ثقافته العربية، ولعلّ السبب الرئيس في ذلك محاولة إثبات ولائه للنعمان بن المنذر وأهل الحيرة، فالقصة بالرواية الرومانية لا تخدم غرضه، ولا تؤدي الهدف المرجو منها.

فهذه القصيدة تمثل نموذجاً لتوظيف قصص الأمثال التاريخية في الشعر الجاهلي، نقل الشاعر من خلاله ما كان شائعاً بين العرب من أمثالها وأحداثها وشخصياتها التاريخية ونهايتها، ووظّفه في غرض معين أرادته، وقد توفرت لهذه القصة المثلية الشعرية عناصر القصة الفنية كالبناء والسرد و الشخص و الزمان و المكان و المغزى، وتميزت بأسلوب حكائي

توظيف قصص الأمثال التاريخية في الشعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي

ممتع يشد المتلقي للمتابعة بعيداً عن السأم والسرحان الفكري، إلى جانب ما تضمنته من أمثال ساهمت في تكامل بناء الأحداث وتتابعها وأضافته تشويقاً للقارئ في ربطها بين القصة والمثل، الأمر الذي يجذب القارئ في تتبع الربط المحكم عند الشاعر بين هذه الفنون الثلاثة الشعر والقصة والمثل، أضف إلى ذلك الأحداث التاريخية والشخصيات التاريخية التي ينساق الإنسان بطبعه للاستماع إليها ومعرفة تفاصيلها ونهايتها، وأخذ العبرة والمغزى منها.

وفي نهاية المطاف لا بد أن نوجز النتائج التي نستخلصها من البحث، وأهمها:

- أن قصص الأمثال في الشعر الجاهلي شاعت شيوعاً ظاهراً، واستطاع الشعراء توظيفها في خدمة أغراضهم الشعرية.
- تنوع قصص الأمثال التي سردها الشعراء، من أبرزها القصص التاريخية والاجتماعية والخرافية والواقعية.
- قصص الأمثال التاريخية من أهم القصص التي وظفها الشعراء الجاهليون في شعرهم، وقد تنوعت أساليبهم في ذلك، حسبما يقتضيه هدف الشاعر وغرضه.
- عدي بن زيد العبادي من أبرز الشعراء الذي وظفوا ببراعة قصص الأمثال التاريخية في شعرهم لأغراض مختلفة، ومن أهم تلك القصص قصة جذيمة الأبرش والزباء التي اعتمد فيها عدي الرواية العربية.

- توظيف عدي بن زيد العبادي قصة جذيمة الأبرش والزباء في محاولة إقناع النعمان بن المنذر أن يغير قراره ويخرجه من السجن، وكى يعزي نفسه ويهدئ من روعها ويخفف من قلقها من خلال العبر المستقاة من القصة.
- ربط الشاعر المحكم بين أحداث القصة والأمثال التي فسرتها والقصيدة الشعرية التي نظمها، فقدمت القصيدة نموذجاً لارتباط فنون ثلاثة مهمة الشعر والقصة والمثل.
- تفسير القصة عدداً من الأمثال المعروفة والمشهورة عند العرب، والمروية في كتب الأمثال وغيرها.
- الاختلاف أحياناً في رواية الأمثال التي فسرتها القصة، والاختلاف أيضاً في قائلها وأحداثها، ويعود السبب في ذلك إلى التغيير الذي يلحق النثر عادة من جهة، أو إلى تغيير الرواة وتحريفهم للمثل واختراعهم أحياناً لقصة توافق المثل من جهة أخرى.
- عرضُ الشاعرِ لقصته مع الأمثال التي فسرتها عرضٌ يتسم بلغته الواضحة المفهومة السلسلة والتراكيب الرصينة، وتميزت القصيدة بوحدتها العضوية وتماسك بنائها الفني، وقد توافرت فيها عناصر القصّ الرئيسية من الشخصيات والمكان والزمان والأحداث والسرد والوصف والبناء الحكائي المتتابع المترابط، والنهاية التي لخصت مغزى القصة.

توظيف قصص الأمثال التاريخية في الشعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي

- صوت الشاعر كان واضحاً في القصيدة من خلال بنائها ولغتها وأسلوبها، وخطاب الشاعر للنعمان، وذكره المغزى الذي يستخلص منها.

فهرس المصادر والمراجع

١. الأدب الشعبي في تونس، محمد المرزوقي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٦٧م.
٢. الأعلام، خير الدين الزركلي، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م.
٣. الأمالي لأبي علي القالي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥م.
٤. الأمثال، زيد بن رفاعة الهاشمي، تحقيق: د. علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين، دمشق، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.
٥. الأمثال، أبو عبيد القاسم بن سلام، ط١، تحقيق: د. عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٠م.
٦. الأمثال، أبو فيد مؤرج السدوسي، حققه د. رمضان عبد التواب، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١.
٧. أمثال العرب، المفضل الضبي، تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٨. الأمثال العربية القديمة، رودلف زلهاميم، ط١، ترجمة وتحقيق وتعليق د. رمضان عبد التواب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧١م.
٩. الأمثال العربية والعصر الجاهلي، د. محمد توفيق أبوعلي، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
١٠. الأمثال في النثر العربي القديم، د. عبد المجيد عابدين، دار مصر للطباعة، القاهرة، ط١، ١٩٥٦م.

توظيف قصص الأمثال التاريخية في الشعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي

١١. البيان والتبيين، لأبي عثمان بن بحر الجاحظ، بتحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط/٧، ١٩٩٨م.
١٢. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، مجموعة من المحققين، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٦٥م.
١٣. تاريخ الأدب في العصر الجاهلي، د.شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط/٢٨، ٢٠٠٨م.
١٤. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، للثعالبي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.
١٥. جمهرة الأمثال، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، دار الفكر، بيروت
١٦. جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، أحمد الهاشمي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط/٢٧، ١٩٦٩م.
١٧. الحيوان، للجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط/٢، ١٩٦٥م.
١٨. ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق د. محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، ١٩٥٠م.
١٩. ديوان يشر بن أبي خازم الأسدي، عني بتحقيقه د. عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٠م.

٢٠. ديوان شعر المتمس الضبعي، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٧٠م
٢١. ديوان الطرماح، عني بتحقيقه د. عزة حسن، دار الشرق العربي، بيروت، ط/٢، ١٩٩٤م.
٢٢. ديوان عدي بن زيد العبادي، حققه وجمعه: محمد جبار المعبيد، بغداد، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، ١٩٦٥م .
٢٣. ديوان النابغة الذبياني، صنعة ابن السكيت، بتحقيق د. شكري فيصل، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٨م.
٢٤. زهر الأكم في الأمثال والحكم، الحسن بن مسعود أبو علي اليوسي، تحقيق: د. محمد حجي ود. محمد الأخضر، الشركة الجديدة- دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط/١، ١٩٨١م.
٢٥. شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، حققه وقدم له د. إحسان عباس، سلسلة التراث العربي، الكويت، ١٩٦٢م
٢٦. شعر زهير بن أبي سلمى، صنعة الأعلم الشنتمري، تحقيق د. فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط/٣، ١٩٨٠م.
٢٧. الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدنيوري، دار الحديث، القاهرة، ٥١٤٢٣.
٢٨. الصحاح، إسماعيل بن حمّاد الجوهري، ط٤، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م .

٢٩. العقد الفريد، شهاب الدين أحمد بن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤٠٤هـ.
٣٠. فجر الإسلام، أحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، القاهرة، ٢٠١٢م.
٣١. فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، أبو عبيد عبد الله بن محمد البكري، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/١، ١٩٧١م.
٣٢. الفن ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط/١٠، ١٩٨٣م.
٣٣. القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/٨، ٢٠٠٥م.
٣٤. القصة والحكاية في الشعر العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي، د. بشرى الخطيب، دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد، ١٩٩٠م.
٣٥. الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن الأثير الجزري، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط/١، ١٩٩٧م.
٣٦. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمرو الزمخشري، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ -
٣٧. لسان العرب، محمد بن مكرم ابن منظور، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ .

٣٨. مجمع الأمثال، أحمد بن محمد الميداني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت - لبنان، د.ت.
٣٩. المستطرف في كل فن مستظرف، محمد بن أحمد الأبهسي، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار القلم، بيروت، ١٩٨١.
٤٠. المستقصى في أمثال العرب، أبو القاسم محمود جار الله الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/٢، ١٩٨٧ م.
٤١. معجم البلدان، شهاب الدين ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط/٢، ١٩٩٥ م.
٤٢. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، ط٤، دار الساقى، بيروت، ٢٠٠١.
٤٣. مقاييس اللغة، أحمد بن زكريا ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٩ م.
٤٤. المقتضب، لأبي العباس محمد بن يزيد الشمالي المبرد الأزدي، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٤ م.
٤٥. من فنون الأدب الشعبي في التراث العربي، محمد رجب النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، وزارة الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣ م.
٤٦. نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب النويري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٣ هـ.

المجلات والدوريات:

١. اقتراض العربية من الفارسية، الشاعر عدي بن زيد العبادي نموذجًا، سعد الدين المصطفى، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، مجلد ٨١، الجزء ١.
٢. المخبل السعدي، حياته وما تبقى من شعره، حاتم الضامن، مجلة المورد العراقية، المجلد الثاني، العدد الأول، ١٩٧٣م.